مكتبة

ملاذ

الصندوق الأسود للبنات

م. عبد الوهاب السيد الرفاعي

نوفا بلس للنشر والتوزيع
NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING

مكتبة ٨٠٢

مكتبة | 802

سُر مَن قرأ

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي

ملاذ

العنوان

مـــــــلاذ

تأليف

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي



ردمك:

978-99966-96-38-1

رقم الإيداع: 2017/1515

تصميم وإخراج

نوڤا بلس للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

نوڤا بلس للنشر والتوزيع

NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING

www.novapluskw.com

مكتبة | 802
سُر مَن قرأ

ملاذ

الصندوق الأسود للبنات

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي



نوفا بلس للنشر والتوزيع
NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING

تنويــه

يسألني القراء باستمرار ودون توقف عن مدى واقعية القصص التي أكتبها.. ولهؤلاء الأعزاء أقول:

أعتذر بشدة عن الإجابة لأسباب لا مجال لذكرها

البداية

شعور غريب ينتابني وأنا أسجل صوتي في ذاكرة هاتفي على أن أفرّغ هذا الكلام على الورق لاحقا.. فأنا أكره الحديث عن نفسي.. لكنني أجد نفسي مضطرا لذلك الآن.. مهلا.. أكاد ألمح ابتسامة عدد ليس بالقليل منكم!!.. خاصة هؤلاء الذين قرأوا لي سابقا.. نعم.. أنا الطبيب النفسي ذاته.. أنا الذي نشرت مذكراتي طوال السنوات القليلة الماضية عن أغرب الحالات التي مرت علي في مستشفى الطب النفسي.. من خلال سلسلة شهيرة حملت اسم (حالات نادرة).. حيث كانت على 4 أجزاء منفصلة تتعلق كلها بفتيات كويتيات.. إلى أن قررت التوقف منعا للملل*.

ورغم شهرة الورق التي حصلت عليها بفضل القراء الأعزاء.. إلا أنني حافظت على سرية شخصيتي ولم أكشف حتى عن اسمي.. كوني أعلم جيدا أن أهم خسائر الشهرة فقدان الخصوصية.. لهذا ابتعدت عن الأضواء.. لأصطدم بعالم آخر مزدحم يدور

* يمكنك عزيزي القارئ مراجعة سلسلة (حالات نادرة) لنفس المؤلف إن أردت.. وبإمكانك أيضا تجاهلها بالكامل وقراءة هذا الكتاب فحسب.. فهو كتاب منفصل تماما لا ترتبط أحداثه بإصدارات المؤلف السابقة.

في رأسي!!!.. هذا ما أشعر به بالفعل منذ خروجي من بيت العائلة لأقيم وحيدا في شقتي الأنيقة بمنطقة (الشامية).. رغم اعتراضات والدتي وأشقائي على هذا التصرف غير المألوف في مجتمعاتنا الخليجية.. إلا أنني تجاهلت غضبهم.. واكتفيت بالوعد أنني سأظل على تواصل دائم وسأزورهم باستمرار.. وهذا ما أفعله منذ ذلك الحين.. محاولا تذكيرهم بين الحين والآخر أنني حين أعيش وحيدا وأغلق باب شقتي على نفسي.. فهو ليس كرها بمن هم في الخارج.. بل حبا لعالمي في الداخل.. لأنني لا أحب كثرة الزيارات العائلية.. ولا أحب التجمعات المسماة بالدواوين.. ولا أحب العلاقات الاجتماعية وقيودها.. ولا أعلم لماذا أكره الأشياء حين يحبها الكثيرون!!!.. لذا أحاول دوما أن أعزل نفسي عن الناس.. فالوحدة ليست أسوأ شعور.. بل أن تكون مع أناس يشعرونك بالوحدة!!.

ورغم كل هذا.. أبذل جهدا هائلا كي أقف على ذلك الخط الرفيع مع جميع أقاربي.. أن لا أقترب كثيرا فتقل أهميتي.. ولا أبتعد كثيرا فينساني الجميع.. لكني غير سعيد عموما.. لأنني أفقد الحرية حين أقترب.. وأفقد الانتماء حين أبتعد!!.. المشكلة أنني بت أفعل الشيء ذاته حتى مع الأصدقاء..

فكلما تمر الأيام.. ينخفض عدد الناس الذين أستمتع بالجلوس معهم!!.. نعم.. يبدو أنني متجه إلى العزلة التامة.. وأجمل ما بالعزلة أنها تجعلك تتعرف على نفسك جيدا.. وربما ستكون حياتي أفضل كشبح من أن أعيشها كإنسان.

وبالطبع يعرف من قرؤوا لي سابقا أنني حاليا في أواخر الثلاثينيات من العمر.. وما زلت أعزب حتى هذه اللحظة لأسباب كثيرة ذكرتها في سلسلة (حالات نادرة).. فأنا أشعر أنني مختلف عن بقية الناس.. ولا يمكن لشخص مختلف أن يكون ككل الناس ويتزوج!!.. كما أنني ما زلت أحمل ذات التقديس للأنثى.. فلا أستطيع الارتباط بواحدة فقط.. ولا أستطيع أيضا الضحك على عقول البريئات.

أكاد أسمع البعض يتساءل في قرارة نفسه.. لماذا عاد هذا الطبيب النفسي بفلسفته المملة؟!.. ولماذا اختار اسم (مـلاذ) كعنوان لإصداره الجديد؟!.. حسنا.. ربما الغلاف الخلفي للكتاب يشرح قليلا عن محتواه.. لكن أضيف وأقول أن القصة بأكملها بدأت من (بشاير).. فتاة كانت نزيلة في مستشفى الطب النفسي.. حيث أشرفت على علاجها بنفسي.. قبل أن تتحسن حالتها وتخرج.. فقد اتصلت بي بعد قرابة السنة..

وطلبت مني برجاء أن أقوم بإنشاء نادٍ يختص في العلاج النفسي الجماعي (Group psychotherapy).. وأندية كهذه معروفة للغاية في الغرب كما تعلمون.. ويتلخص نشاطها بعبارة واحدة فقط: أرني ألمَك وسأريك ألمي!!.. حيث يتم هذا تحت إشراف طبيب أو استشاري نفسي.. فيلتقي بمجموعة من الناس الذين يظهرون من الخارج وكأنهم يعيشون حياة سعيدة.. لكنهم في واقعهم السري والداخلي يعانون مشاكل نفسية كثيرة وغير راضين عن حياتهم.

لذا.. وبعد تفكير استغرق بضعة أيام.. وجدت أن لا مانع من تنفيذ فكرة (بشاير).. فأتيت بورقة وقلم.. وجلست في تلك الليلة لأخط شروط الانضمام لهذا النادي.. فكانت أهمها:

1. النادي سيكون خاصا بالفتيات فقط طالما أن صاحبة الاقتراح فتاة.. فمن الصعب جمع الجنسين في مكان واحد ليبوح الجميع بأسراره.. سيكون الأمر محرجا للغاية لهم.

2. ألا يكون في التجمع الواحد أكثر من 3 فتيات.. كي يكون لكل فتاة الوقت الكافي للتحدث بحرية دون قيود زمنية.

3. مواعيد التجمعات تكون على فترات متباعدة كي أتمكن من الالتزام بها.. وهو أمر لا يحتاج إلى تخطيط عموما.. فلن نجد كل يوم فتاة عاشت قصة غريبة خارجة عن المألوف لتخبرنا بها.

4. الالتزام التام بحضور تجمع النادي حسب الموعد المتفق عليه.

5. السرية التامة.. فلن يتم ذكر البيانات الشخصية لعضوات النادي سوى الاسم الأول.. ولو كان الأمر بيدي لمنعتهن حتى من امتداد علاقتهن إلى خارج النادي.. فالعلاقات الجميلة تكمن بإبقاء المسافات بين أصحابها.. أما حين يتم التقارب.. ستبدأ المشاكل.. إنها طبيعة البشر.

6. لا مقاطعة من أي نوع أثناء سرد كل فتاة لتجربتها.. ولا العبث بالهواتف الذكية.. بل سيتم وضع الهواتف على وضعية الصامت.. وفي ركن منسي بعيدا عن متناول اليد.. إلى أن تنتهي الأمسية.

أما أهداف النادي فلا تختلف عن أهداف أي نادٍ للعلاج النفسي الجماعي.. وهي كالتالي:

1. الفضفضة.. فهي نصف العلاج النفسي كما أقول دوما.. وهذا تحديدا ما تركز عليه أندية العلاج النفسي الجماعي هذه.. خاصة وأن أقسى ألم.. إخفاء الألم.

2. منح العضوات الشعور الجميل بالانتماء.

3. الحصول على الدعم المعنوي.. مما يؤدي إلى زيادة الثقة بالنفس لكل متحدثة.

4. أن تعرف كل فتاة أن ما مرت به من تجارب لا يجعلها سيئة الحظ.. فهناك أخريات عشن تجارب قد تكون أغرب وأقسى.. وكما يقال دوما.. حين نعرف مصائب الغير.. تهون علينا مصائبنا.

5. الأمل في أن تكون بعض التجارب مصدر إلهام للأخريات.. كونها حققت نتائج إيجابية ربما.. وساهمت بتغيير حياة من تعرضن لها إلى الأفضل.

أما اسم النادي.. فقد ظللت أفكر بأسماء كثيرة في البداية.. مثل (نادي الندوب).. (نادي العتمة) .. لكني في النهاية وجدت أن اسم (مــــلاذ) الأنسب.. لأنه يحوي شيئا من الأمل والانتماء والغموض معا.. و.. بدأت بعد كل هذا أفكر بطريقة لجذب

الفتيات إلى هذا النادي الغريب.. إلى أن استقررت على إنشاء حساب في (تويتر) يحمل عنوان (@malathkwsa).. مع وضع البريد الإلكتروني للنادي في السيرة الشخصية للحساب.

وجلست بعدها أنتظر أياما وشهورا طويلة لم تصلني فيها سوى 8 رسائل فقط.. فقمت باستبعاد معظمها حين وجدت أنها تتراوح بين العبث أو المشاكل العائلية المعتادة.. لأستقر في النهاية على فتاتين فقط.. بالإضافة إلى (بشاير) صاحبة فكرة إنشاء النادي.. فقررت أن أبدأ التجمع الأول بهن.. آملا أن يستمر النادي وأن تكون هناك تجمعات أخرى مستقبلا.

تبقّى في النهاية اختيار المكان المناسب للتجمع.. لم أكن أرغب أن يكون مستشفى الطب النفسي مقرّنا الرسمي لاعتبارات كثيرة.. أهمها أن البعض سيتحرّج من زيارته.. ولأنني أرغب أيضا بمكان هادئ يشجع على الاسترخاء بعيدا عن أجواء المستشفى.. وبالطبع لم أختر شقتي كونها تقع في الطابق الثاني من بيت.. ولا أريد أن يظن بي صاحب البيت الظنون حين يجد الفتيات يأتين لزيارتي.. دعكم من أن عددا كبيرا منهن قد يرفضن ذلك أصلا.. لذا اقترحت (بشاير) أن يكون التجمع في شقتها هي.. كونها مطلّقة.. وتعيش وحيدة لأسباب

ستعرفونها حين تسرد لكم قصتها.. فوافقت مباشرة.. ليتم اعتماد مكان سكنها كمقر رسمي لهذا النادي.. ولو بصورة مؤقتة.

و.. في الساعة السابعة من مساء يوم خميس من شهر يونيو عام 2016.. كان موعد تجمعنا الأول.. حين خرجت ليلتها مرتديا ثيابا مريحة للغاية.. ورحت أقود سيارتي باسترخاء متجها إلى شقة (بشاير).. وشعور شديد بالفضول ينتابني كوني سأرى معها فتاتين لأول مرة.. فعلا.. مهما كبر الرجل وكبرت مكانته.. يتحول إلى طفل حين يكون على وشك اللقاء بفتيات يصور له عقله أن إحداهن قد تكون أميرة أحلامه.

السكينة والصفاء النفسي يسيطران علي.. فلا مسؤوليات ولا التزامات من أي نوع.. أرفع صوت الموسيقى لتطغى على ضجيج العالم.. العندليب (عبدالحليم) يشدو كالعادة وإلى درجة قد تشعركم بالملل كوني أتحدث عنه باستمرار.. المعذرة.. فلا شيء يسعدني كـ (عبدالحليم).. حتى أصبحت روائعه ترتبط بي بشكل أو بآخر.. إنه مثال مجسد للتناغم العبقري بين الكلمة البسيطة القريبة من قلوب الناس.. واللحن الساحر.

أردد كلمات أغنية (بحلم بيك) بشيء من الحزن اللذيذ وأعيد سماعها مرة أخرى وأخرى.. إلى أن وصلت أخيرا إلى منطقة (المسايل) حسب العنوان.. وإلى ذلك البيت الصغير حديث البناء.. والذي تم تحويل كل دور منه إلى شقتين كما علمت من (بشاير).. فركنت سيارتي.. وترجلت منها لأدخل عبر الباب الرئيسي.. أسير بخطوات هادئة حتى وجدت نفسي أمام باب الشقة المطلوبة.. أقف أمامها.. وألتقط نفسا عميقا.. آملا أن أجد الفتيات الثلاث هنا كوني وصلت بعد الموعد بنصف ساعة.. وهو أمر متعمد كي أمنحهن وقتا كافيا للحصول على بعض الألفة بعيدا عن وجود أي رجل بينهن.

أطرق الباب بهدوء.. فتفتح لي فتاة نحيلة دقيقة الملامح بشرتها تميل إلى الاسمرار.. ويتدلى قرطان رقيقان من أذنيها.. أما شعرها فأسود طويل نسبيا أرجعته إلى الوراء. ابتسمت بود مرحبة.. لأبتسم بدوري مغمغما ببعض كلمات المجاملة.. أعرف تلك الفتاة جيدا بالطبع.. إنها (بشاير) التي حدثتكم عنها.. أشارت بيدها لأدخل وهي تستمر بإلقاء كلمات الترحيب.. فدخلت.. و.. خفق قلبي كما يخفق دوما حين أرى ذلك الجمال الذي لا أجده إلا في البنت الخليجية!!.. فتاتان كانتا تجلسان بخجل

شديد.. فنهضتا لتلقي كل منهما التحية على استحياء.

جلست بعدها على أريكة أنيقة في غرفة المعيشة وأنا أنظر حولي مستكشفا المكان.. إنني في شقة صغيرة لكنها بالغة الأناقة.. المكان الذي تشعر فيه بصفاء نفسي لا تفهمه.. يبدو أنني أنتمي لأي مكان صغير وأنيق.. ومظلم!!.. نعم.. فلا يوجد مصدر للإضاءة سوى بعض الشموع القليلة هنا وهناك.. مما يمنح الجو روعة ولذة لا توصف.. أنظر إلى الفتاتين.. (ملاك).. وهي متوسطة القامة ممتلئة الجسد قليلا.. بيضاء البشرة ينسدل شعرها على كتفيها بنعومة.. و.. (مُهرة).. هذه الفتاة تحديدا كانت جميلة بشكل قاتل.. إلى درجة أن قبح العالم كله اختفى فجأة من ذاكرتي بعد أن ملأتها هي بعبَقها.. إنها نحيلة الجسد.. بيضاء البشرة أيضا.. شعرها قصير نسبيا.. لها نظرة حالمة تأسر القلب.. حتى لتستطيع أن تكتب قصائد مدح في نظراتها.

جميل أنهن التزمن بما طلبته.. الحضور دون تكلف أو أناقة مبالغ بها.. فنحن في نادٍ للعلاج النفسي.. ولسنا في حفل زفاف.. ولأنني أيضا أحب البساطة دوما.. لكن.. كان لا بد بالطبع من بعض الماكياج ومستلزمات التجميل.. إنها غريزة أنثوية

لا مفر منها.

(بشاير) تجلس وتصب لي فنجانا من الشاي محدثة تلك القرقرة التي تأسر النفس.. ثم تقول:

- أخيرا قابلتك مجددا يا دكتور.. لم ألتق بك منذ زمن.. كنا نكتفي بالتواصل الهاتفي بعد خروجي من المستشفى.

نظرت إليها مبتسما لأقول:

- وسائل التواصل الاجتماعي غريبة.. إنها تجعلنا نلتقي بكل شخص يهمنا.. وتبقينا بعيدين عنه بنفس الوقت.. لكني سعيد عموما بهذا اللقاء.. وأستطيع أن أرى تحسنا ملموسا في حالتك النفسية.

أومأت برأسها إيجابا وهي تقول:

- إننا نتعايش مع المصائب مهما كانت.. شئنا أم أبينا.. لكني فخورة أيضا بكل ما فعلته لأتجاوز أزمتي.

ابتسمت مجاملا.. ثم.. نظرت إلى الفتاتين.. أنتظر منهما أن يقولا شيئا.. لكن الخجل يغلبهما.. فتبتسم (بشاير) وتقول بالنيابة عنهما:

مكتبة
t.me/t_pdf

- لم أجد الوقت للتعرف عليهما بصورة كافية.. فحديثنا كله كان يتمحور حولك أنت يا دكتور!!.. المعذرة.. إنهما لا يعرفانك جيدا ولم يلتقيا بك سوى الآن.. وكانتا تخشيان أن يكون خيارهما خاطئا في المجيء إلى هنا.. أعلم أنهما من تواصلا معك إلكترونيا وطلبا الانضمام إلينا في هذه الأمسية.. وأعلم أنك بدورك تواصلت معهما هاتفيا بعد ذلك لتأكيد جدية الأمر.. لكن التردد ظل باقيا إلى ما قبل وصولك بقليل.. بل أن (ملاك) فكرت جديا بالرحيل ظنا منها أن ما نفعله مجرد عبث.. لكني أقنعتها بالبقاء بناء على معرفتي الشخصية بك.

سكتت للحظة.. ثم التفتت إليهما وهي تقول بابتسامة مشجعة:

- لا تغضبا لأني أخبرت الدكتور بمشاعركما.. فلا توجد أسرار بيننا في هذا النادي.. وعموما هي دقائق قليلة قبل أن نألف كلنا هذا التجمع الجميل.. وستشعران بروعة اللحظة حين نبدأ بسرد قصصنا في هذا الظلام الذي لا تبدده سوى تلك الشموع.. لقد تعمدت وضعها لنمنح ليلتنا الأجواء الساحرة التي نرجوها.

غمغمت (مُهرة) بابتسامة أصابتني بمقتل:

- إنني أشعر بالألفة منذ وصولي.. لكني صامتة لأنني مستمتعة جدا بهذه الأجواء.

تضيف (ملاك) وهي تتنحنح:

- أما أنا فأشعر بشيء من الخجل صراحة.. لكني سأحاول التغلب عليه.

ابتسمنا جميعا مشجعين.. ثم قالت (بشاير) وهي تشير إلى صينية تحوي (سندويتشات) صغيرة الحجم ملفوفة بورق أنيق عليه شعار شركة معروفة:

- أرجوا أن تأكلوا ما تشاؤون.. سأصب لكم المزيد من الشاي إذا رغبتم.. ما رأيك يا دكتور أن تقوم بإلقاء كلمة ترحيبية.. وتتحدث قليلا عن النادي قبل أن نبدأ؟!.

أومأت برأسي وأنا أرشف الشاي مستمتعا بنظرات الجميع وكأنني نجم هذا اللقاء.. جميل أن أبدو قويا أمام الناس.. لكن المشكلة أنني أنكسر دوما في الخفاء.. المهم أنني قلت مبتسما:

- في البداية أرحب بكن جميعا في (مـــلاذ).. هذا النادي

الخاص بالعلاج النفسي الجماعي.. والذي لم يكن ليتأسس لولا مستضيفتنا (بشاير) صاحبة الفكرة.. ويسعدني كثيرا أنني تواصلت معكما عبر البريد الإلكتروني.. ثم هاتفيا.. قبل أن نلتقي هنا أخيرا.

سكت قليلا لآخذ رشفة أخرى من الشاي.. ثم أكملت:

- لا شك أنكن تعرفن شروط النادي بعد أن أرسلتها لكل منكن عبر البريد الإلكتروني.. إنه نادٍ خاص بكل فتاة مرت بتجربة غريبة.. هكذا باختصار!!.. حيث ستحظى معنا بفرصة لسرد قصتها بحرية كاملة.. وسنستمع إليها بكل اهتمام.

سألتني (مُهرة):

- أريد أن أعرف.. لماذا تتحدث دوما عن الفتيات؟!.. لماذا توليهن هذا الاهتمام المبالغ به؟!.. إننا لا نجد أي نصيب للرجال في قصصك.. المعذرة.. لقد قرأت سلسلتك الشهيرة (حالات نادرة) وأثار هذا الأمر فضولي كثيرا.. علما أن هذه السلسلة تحديدا سبب ثقتي بك وانضمامي لهذا النادي.. كوني واثقة أن قصتي غريبة

جدا أيضا.. ويمكنك تصنيفها بسهولة تحت مسمى (حالة نادرة).. أعتقد أنك توافقني في هذا بعد أن أرسلت لك ملخص عنها عبر البريد الإلكتروني.

أومأت برأسي موافقا وأنا أجيب بصدق:

- السبب ذكرته كثيرا في سلسلة (حالات نادرة).. ولا أمل من تكراره.. إنك فتاة وتعرفين أن الأنثى في مجتمعنا مظلومة.. فالقيود حولها كثيرة للغاية.. عكس الشاب الذي يستطيع أن يفعل ما يحلو له تحت ذريعة المقولة العربية السخيفة التي تثير غضبي دوما: ((الرجل شايل عيبه))!!.. تلك المقولة التي أتمنى لو أستطيع محوها من قواميسنا.

ضحكن جميعا.. ثم سألتني (مهرة) مرة أخرى:

- يبدو لي أنك ضد فكرة الزواج.. شعرت بهذا وأنا أقرأ كتاباتك في سلسلة (حالات نادرة)!!.

قلت بشيء من التردد:

- ربما حماية للأنثى.. فهي ترغب دوما بالاحتواء.. لكن

الرجل غير قادر على منحها هذا الاحتواء.. بل يريده لنفسه!!.. لأن الرجل في الغالب غير ناضج.. ويحتاج إلى أُم كي تشعره أن الدنيا بخير.. هذه حقيقة لا يدركها إلا حين يتزوج ويصبح مسؤولا عن زوجته.. لتقع المسكينة في النهاية ضحية ذلك!!.. ولا ننسى أن العلاقات بين الجنسين في مجتمعاتنا العربية مربكة أصلا.. لأن التباعد بين الشاب والفتاة جعل الطرفين عاطفيين للغاية.. لدرجة أن كلمة (مساء الخير) قد تبدأ من خلالها علاقة حب!!!.. وإنني هنا أستذكر ما قاله أحد الفلاسفة يوما.. حين سأله أحدهم عن أفضل طريقة تعامل فيها المرأة العاقلة زوجها.. إذ رد قائلا: ((المرأة العاقلة لا تتزوج))!!.

ضحكن مرة أخرى.. ثم.. سألتني (ملاك) فجأة:

- المعذرة.. لكن ما الفائدة التي ستجنيها من إنشاء نادٍ كهذا؟!.

قلت ببساطة:

- إنني أعشق عملي.. هذا أولا.. كما أنني أرغب بإجراء

بعض التغييرات في حياتي.. فالأيام باتت تتشابه بشكل مزعج.. حتى لو وضعنا لها تواريخ وأسماء.. وهذا النادي سيكون إضافة جديدة لحياتي.. مع العلم أن تجربة كهذه ليست الأولى بالنسبة لي.. فقد خضت شيئا مماثلا في الجزء الرابع والأخير من سلسلة (حالات نادرة)*.. لكنني لن أمل تكرار التجربة أبدا.. كوني من القلة الذين يحبون الإنصات أكثر من التحدث.. ولأنني مؤمن أننا حين نلتزم الصمت.. سنفهم ونتعلم الكثير.. وستزيد ثقافتنا أيضا.. رغم أنني على يقين أنه كلما زادت ثقافتنا.. زاد بؤسنا!!.. عموما.. يبدو أن صمتي الدائم هو ما جعلني ناجحا في مجال عملي.

أومأت برأسها متفهمة.. ثم قالت (بشاير):

- هناك نقطة لم أطرحها عليك يا دكتور.. فبعد انتهاء الأمسية.. ستكون هناك أمسيات أخرى دون شك.. وهذا يعني زيادة عددنا.. إذ أن كل لقاء سيشمل العضوات السابقات مع الجديدات.. وبهذه الطريقة سيكثر العدد.. وسيفقد اللقاء تلك الأجواء الجميلة.. كيف سنتصرف حينها؟!.

---

* راجع الجزء الرابع من سلسلة (حالات نادرة) إن أردت.. لكنه لا يرتبط إطلاقا بهذا الكتاب.

أجبتها مبتسما:

- إنك تتحدثين وكأن الكثيرات عشن تجارب غريبة كتجربتك.. أنا واثق أن اللقاء القادم لن يكون قبل مدة طويلة من الآن.. تذكري كم استغرق الوقت كي تصلني رسائل تثير الاهتمام كرسالة (ملاك) و(مُهرة).. فهما الوحيدتان اللتان قدمتا لي ملخصا لقصتيهما أثار فضولي كثيرا.. ومن يعلم متى ستصلنا 3 رسائل جديدة -على الأقل- كي نقيم تجمعنا القادم؟!.. لا أعتقد أن هذا سيكون قبل سنة من الآن.. دعك من أن إحداكن قد تفقد الحماس لحضور أي لقاء قادم أصلا.. بعد أن قالت ما عندها ولم يعد النادي يثير اهتمامها.. وربما أنت نفسك يا (بشاير) تعتذرين عن استضافتنا في المرات القادمة وتقررين إنهاء كل شيء بعد لقاء اليوم.. لذا.. فمن الأفضل أن نستمتع بأمسيتنا هذه دون التفكير بالمستقبل.

سكتن جميعا وقد بدا عليهن الاقتناع بكلامي.. فأكملت ناصحا:

- لكن.. أرجوكن ألا تجعلن علاقتكن ببعضكن تمتد

إلى خارج هذا المكان.. فجميع البشر نحبهم أكثر لو عرفناهم أقل!!.. والحديث مع الغرباء مريح إلى أن نعتاد عليهم.. هذا ما يجعل العلاقات البشرية رائعة في بدايتها فقط.. ثم تبدأ المشاكل حين يتم التقارب وتتحول تلك العلاقات السطحية الجميلة إلى صداقة!!.

ردت (بشاير) معترضة:

- ما ضرك لو نشأت بين فتيات النادي صداقة من أي نوع؟!.

قلت مبتسما:

هي نصيحة فحسب.. وتستطعن تجاهلها إن أردتن.. المهم الآن.. علينا أن نتذكر أن ننتبه جميعا حين تبدأ كل فتاة بالحديث.. وأن ننسى تماما هواتفنا الذكية التي أخذتها منا (بشاير) مشكورة وتركتها عند المدخل.. ويجب أن نتذكر أيضا أن هذا اللقاء بمثابة الحصن الذي يحمينا من العالم الخارجي مؤقتا.. هذا اللقاء عبارة عن أذن كبير.. عبارة عن.. عبارة عن.. مــلاذ.. لنا جميعا!!.

ابتسمت (بشاير) وهي تقول:

- حسنا إذا.. لنبدأ.. أعتقد أنني سأكون أول المتحدثات كي أمنح الفرصة للضيفتين أن تلتقطا أنفاسهما.. وأن تكتسب كل منهما الجرأة للحديث عن تجربتها بعد أن أنتهي من سرد قصتي.. آمل ألا أسبب لك الملل يا دكتور كونك عايشت قصتي وتعرف كل صغيرة وكبيرة عنها.. وستضطر الآن للاستماع إليها مرة أخرى.

قلت مبتسما:

- إطلاقا.. سيكون جميلا أن أستمع إلى قصتك مجددا.. فهي غريبة بحق.. إنني أشعر بساعات جميلة مقبلة.. وكأنها واحدة من ليالي الطفولة التي هربت من الزمن الجميل لتزورني.. أرجوكن أيضا أن تتذكرن جيدا.. في هذه الليلة لن نرتدي أي أقنعة.. فلسنا هنا لإرضاء أحد.. بل للفضفضة والحديث فقط.. دون أي مراعاة للوقت.. كوننا اشترطنا في البداية ألا يكون لأي منا ارتباط في هذه الليلة سوى هذا اللقاء.. في النهاية أقولها لكل فتاة هنا.. هذا التجمع أحد أسرارك.. فأرجوكِ حافظي عليه.

اتخذنا أخيرا وضع الاستماع.. في حين تنحنحت (بشاير) لتبدأ

بسرد قصتها.. و.. هكذا عزيزي القارئ.. بتنا مستعدين تماما.. فهل أنت مستعد بدورك لمعرفة ما ستقوله كل فتاة في هذه الأمسية؟!.. لا أستطيع أن أعدك أن قصصهن ستنال رضاك.. لكني أعدك أنك لن تشعر بالملل.. هذا هو المهم.. والآن.. دعني أجدد لك دعوة مستضيفتنا (بشاير) بالاستماع إلى قصتها.. ثم قصة (ملاك) وأخيرا (مُهرة).. وسنلتقي مجددا في النهاية كي أضيف بعض التعليقات على القصص.. آملا أن تكون تعليقاتي مفيدة ولا تفسد عليك هذه الأمسية الهادئة.

الدكتور (........)



هائمة!!

تحكيها: بشاير

العمر: 27 عاما

أنا عاقر لا أنجب!!!.. أعلم أنها بداية صادمة لقصتي.. لكنها بداية واقعية جدا وتلخص اللوحة الخلفية لحياتي بأكملها.. فمسألة الإنجاب ظلت دوما اهتمامي الأول وجل ما يشغل بالي.. بل وكنت أحسب أن اللحظة التي يولد فيها الطفل.. تولد معه والدته نفسها.. وتكتشف فجأة أنها لم تعد تعتبر نفسها أهم شخص في حياتها.. وأن طفلها أصبح -في ليلة وضحاها- يمثل لها الكون بأسره.

ولا يرتبط عشقي للأطفال بغريزة الأمومة وحدها كما قد يظن البعض.. بل لأنني اعتدت على ممارسة الأمومة أيضا في سن مبكرة.. حين كنت أنا نفسي مجرد طفلة لا يتجاوز عمري الثامنة آنذاك!!!.. إذ بدأت بالاهتمام الكامل بشقيقتي الصغرى وهي لم تكمل عامها الأول بعد.. فتعلمت من والدتي إطعامها واستبدال ثيابها.. حتى باتت تنام في غرفتي مع مرور الأيام.

ورغم صعوبة المهمة آنذاك على فتاة صغيرة مثلي.. إلا أن قلبي تعلق بشقيقتي.. وبت أراها كالدمية التي أحكي لها كل أسراري.. الفارق أن الدمية كانت حقيقية بالطبع.. كل هذا دون أن يكون للخادمة أي دور يذكر في الأمر.. إذ كانت مهامها لا تتجاوز الطبخ والتنظيف وشراء مستلزماتنا من

السوق المركزي القريب.. مع أخذ مكاني تجاه شقيقتي أثناء تواجدي في المدرسة.

لذا أستطيع أن أقول أنني تعلمت تحمل المسؤولية منذ نعومة أظفاري.. وحاولت أن أخفف عن أمي -رحمها الله- عبء التزاماتها الكثيرة الأخرى كونها موظفة وتقوم بدور الأب والأم معا.. وذلك بعد انفصالها عن أبي الذي آذاها كثيرا -معنويا وجسديا- خلال فترة زواجهما.. ليتركها بعد كل هذا تواجه الحياة بمفردها مع طفلتيها.. أنا وشقيقتي الصغرى التي لم يكن يتجاوز عمرها بضعة شهور حين تم الطلاق.

ورغم مطالبات أمي القانونية للحصول على حقها في النفقة.. إلا أنها في النهاية لم تحصل على شيء.. خاصة بعد أن تزوج أبي من امرأة خليجية وانتقل للإقامة معها والاستقرار في بلدها.. لتنقطع أخباره عنا منذ ذلك الحين.

وهذا الانفصال المؤلم بين والديّ.. جعلني أتعلق أكثر وأكثر بشقيقتي الصغرى.. وأجد فيها البراءة والأمان اللذين لم أجدهما حولي.. فكانت لحظة قليلة من احتضانها تمنحني طاقة إيجابية أعجز عن وصفها.. ولا أبالغ لو قلت أن تربيتي

لشقيقتي الصغرى ساعدتني على الاهتمام بدراستي بعد أن عشت الدور.. وظننت أنني والدتها فعليا.. ويجب أن أكون قدوة لها حين تكبر وتبدأ تفهم الحياة!!.

لكن.. الزمن لا يرحم.. فهو يغير كل شيء.. إنه ينحت واقعنا ببطء وصبر مستفز حتى يتشكل لنا واقعا جديدا دون أن نشعر!!.. فقد كبُرَت شقيقتي مع مرور الأيام ولم تعد تعتمد علي كما كانت تفعل في السابق بطبيعة الحال.. وبدأت بالانزواء في عالمها الخاص لتقضي جل وقت فراغها مع أجهزتها الإلكترونية أو مع صديقاتها.. وربما هذا ما جعلني أفتقد مشاعر الأمومة كثيرا.. مما ترك في داخلي فراغا نفسيا هائلا جعلني أوافق على أول شاب طرق باب بيتنا حين كنت في الـ 20 من العمر!!!.. لكن أمي رفضت فكرة زواجي بهذه السن المبكرة.. وأصرت على إكمالي لدراستي الجامعية.. فاضطررت للانصياع لها.. وتمكنت في النهاية من الحصول على ليسانس أدب لغة انجليزية بعد سنوات دراسية مرت ثقيلة جدا على قلبي.. ولم يكن فيها ما يستحق الذكر سوى الصعوبات التي يعيشها كل طالب.

وقد تحقق حلمي بعد تخرجي بأكثر من سنة.. وبعد أن

حصلت على وظيفة في إحدى الجهات الحكومية.. حين تقدم لخطبتي ذلك الشاب المهذب الوسيم الذي يكبرني ببضع سنوات.. حيث وافقت عليه والدتي بعد أن سألت عنه وعرفت أنه من عائلة محترمة ويعمل في القطاع الخاص بوظيفة تعِد بمستقبل كبير.. أما أنا فكان الإنجاب كل ما يشغل ذهني آنذاك وأرى فيه مفتاح سعادتي الزوجية.. بغض النظر عن أي مؤهلات يمتلكها زوجي.. ليتم عقد القران الذي تحمّل فيه خالي مسؤوليتي كاملة كولي أمري في ظل غياب أبي.. ويتبعه حفل زفاف مبسط ارتديت فيه الفستان الأبيض الذي تحلم به كل فتاة.. دون أن أعلم أنني سأعيش بسببه أياما سوداء!!!.

وقد انتقلت بعدها إلى عش الزوجية الذي كان عبارة عن شقة أنيقة في منطقة (الصدّيق).. حيث عشت مع زوجي أياما هادئة جميلة عرفت فيها طباعه إلى حد كبير.. واكتشفت أنه شاب مجتهد يحب عمله كثيرا ويقضي فيه جل وقته.. قبل أن يعود إلى البيت ليقضي بقية اليوم معي دون أي مشاكل تذكر.. خاصة مع كوني شخصية هادئة أصلا سهلة الإرضاء ولا توجد لدي الكثير من المطالب.

المشكلة كانت في موضوع الإنجاب ذاته.. إذ مرت سنة كاملة

على زواجي دون أي بوادر للحمل!!.. وهو أمر مقلق للغاية بالنسبة لفتاة مثلي ترى الأمومة كل حياتها.. فرغم محاولات زوجي المستمرة لطمأنتي أن الأمور بخير.. وأن الله سيرزقنا بطفل عاجلا أم آجلا.. إلا أنني أصررت بعناد شديد أن نقوم بإجراء كل الفحوصات اللازمة لمعرفة سبب تأخر الحمل.. فانصاع لطلبي أخيرا.. وتبين ما كنت أخشاه كالكابوس وما بدأت به قصتي.. حين اكتشفت أنني عاقر.. ولا يمكن أن أنجب يوما بسبب مشكلة خلقية فى تكوين الجهاز التناسلي نفسه!!!.

لا حاجة أن أصف خيبة الأمل التي سيطرت علي شهورا طويلة.. خاصة مع الردود التي كانت تصلني تباعا من مستشفيات العالم المتقدم.. والتي أرسلت لها ملفا كاملا عن حالتي.. فجميعها أكدت أن حالتي ميؤوس منها ولا يوجد أي أمل في الإنجاب.. حتى أنني فشلت في الحصول على فرصة للعلاج في الخارج على نفقة الدولة بسبب تلك التقارير المحبطة.. فأصبت باكتئاب حاد.. ونقص وزني بصورة ملحوظة مع مرور الأيام رغم مؤازرة زوجي وكلامه المستمر أنه يحبني ولن يتخلى عني أبدا.. وأنه لا يرغب بالإنجاب أصلا.. بل يريدني أن

أكون معه فحسب.. لكن كل هذا لم يكن مجديا.. فحاجتي إلى طفل ظلت أكبر بكثير من الحاجة إلى الزوج والحب.

لا أنكر أنني حاولت أن أستسلم لقدري وأدفن نفسي في العمل.. أو أخرج مع زوجي أو صديقاتي للاستمتاع بوقتي علني أنسى.. لكن هذا زاد الأمور سوءا.. فالمشكلة ليست بالألم فحسب.. بل بتمثيل الرضا!!.. لذا ظلت حالة الاكتئاب الشديدة هذه تسيطر علي.. بل وساءت الأمور أكثر وأكثر مع وفاة أمي رحمها الله.. بعد أن استسلمت المسكينة لأمراضها التي تراكمت عليها بفعل الهموم وتحمّلها المسؤولية كاملة لسنوات طويلة.. فبت عصبية لا أحتمل أحدا ولا أطيق التعامل حتى مع زوجي نفسه.. كون وجوده معي في حد ذاته يذكرني بعجزي.. إلى أن قررت في النهاية الانفصال.. لأطلب الطلاق بحزم دون تراجع.

فاستسلم لرغبتي.. وتم الطلاق بعد حوالي 3 سنوات من زواجنا.. وبعد أن شعر هو نفسه بالملل من علاقة زوجية بلا مستقبل كهذه.. خاصة مع ضغوط والدته وأشقائه المستمرة بضرورة الانفصال والزواج من فتاة أخرى تنجب له ولدا يحمل اسمه.. دون أن أفهم ذلك المبرر السخيف للإنجاب.. فظللت في

شقتي التي أصبحت الملاذ الوحيد لي بعد أن تزوجت شقيقتي الصغرى وانتقلت بدورها لتعيش مع زوجها.. لحسن الحظ كانت شقتي صغيرة وإيجارها لا يرهق ميزانيتي.. دعكم من أنني كنت وحيدة تماما دون وجود حتى خادمة.

كنت أعلم أن حياتي وصلت إلى طريق مسدود وعمري لم يتجاوز الـ 26 بعد.. فأصبحت متشائمة مستسلمة مكفهرة الملامح.. أذهب إلى عملي يوميا قبل أن أعود إلى شقتي لأقضي بقية الوقت بحزن أمام شاشة التلفاز أو أعبث بهاتفي دون أي هدف.. حتى انقطعت عن العالم لأكثر من عام أهملت نفسي خلاله كثيرا.. بل وزاد الأمر سوءا حين علمت بالصدفة أن طليقي تزوج منذ فترة قصيرة.. وأن زوجته حامل!!.. فلكم أن تتخيلوا حالتي آنذاك.

لقد اقترحت علي شقيقتي الذهاب إلى طبيب نفسي لعلاجي من حالة الاكتئاب التي سيطرت علي.. إلا أنني رفضت الفكرة بشدة.. فحاولت المسكينة إخراجي بنفسها من حياتي السوداء هذه.. وطلبت مني إجراء بعض التغييرات الجذرية.. كأن ألتقي بصديقاتي اللاتي تركتهن منذ زمن.. أو أسافر وأستمتع بالحرية التي قد تحسدني عليها الكثيرات على حد قولها..

فخضعت أخيرا لتلك الضغوط رغم الجرح النفسي الغائر الذي ظل ينزف من قلبي بلا توقف.. وبدأت أخرج بين الحين والآخر دون أن أشعر بأي فارق في حالتي النفسية.. إلى أن التقيت بذلك الشاب!!!.

كنت ليلتها مع شقيقتي وإحدى صديقاتي في قرية (مروج) التي تمتلئ بالمقاهي والمطاعم.. نجلس ونتحدث حول أمور عدة.. وكان لا بد بالطبع أن أتطرق لمشكلتي والحديث عن الإنجاب وعشقي الشديد للأطفال.. والحديث أيضا مع شقيقتي عن متاعب الحمل كونها حامل في شهرها الثاني.. رغم أنها ظلت تحاول تجنب الأمر كي لا تثير غيرتي.. إلا أنني كنت سعيدة من أجلها بالفعل.

كان هذا قبل أن ألمح ذلك الشاب وهو يحدق بي بإعجاب واضح وابتسامة ودود.. لم أعره اهتماما في البداية عالمة أنها مجرد محاولة شبابية للعبث.. لكني شعرت مع مرور الوقت أنه ينظر إلي بإصرار.. فرمقته بطرف عيني دون أن تنتبه شقيقتي أو صديقتي اللتان انشغلتا بالحديث.. إنه شاب حليق الوجه مقبول الملامح نحيل الجسد كما بدا للوهلة الأولى.. الغريب أنني وجدت نفسي مع مرور الوقت أنظر إليه

وأبتسم لا شعوريا.. ربما هي الرغبة بالتغيير.. أو كسر قيودي النفسية.. لا أعلم.. و:

- (بشاير).. هل أنت بخير؟!.. جميل أن نراك مبتسمة هكذا.

قالتها صديقتي وهي تنظر إلي بتفاؤل.. فانتفضت في مكاني دون قصد وقد شعرت بالحرج.. لكنها أردفت وقد اتسعت ابتسامتها:

- إنني على يقين أنك ستنسين موضوع الإنجاب مع مرور الأيام.. فهناك أمور كثيرة أخرى تجلب السعادة.. صدقيني.

هذا جيد.. لحسن الحظ لم تنتبه لنظراتي تجاه ذلك الشاب.. المهم أنني نظرت إليها مبتسمة مجاملة لكلماتها.. ثم تنحنحت ونهضت مدعية رغبتي في الذهاب إلى دورة المياه.. لأجد ذلك الشاب ينهض بدوره دون أن يثير هذا اهتمام الناس بسبب زحمة المكان كما هي العادة دوما هناك.. فتبعني بهدوء وأنا أتجه متعمدة ناحية مواقف السيارات.. وحين وصلت إلى مكان رأيت أنه يحجبنا إلى حد ما عن أعين المتطفلين..

توقفت!!.. فاقترب مني بابتسامة واسعة.. وأخبرني صراحة أنه معجب بجمالي.. لأبتسم بخجل كحال أي أنثى تسمع كلمات المديح.. ثم.. طلب مني برجاء أن أحتفظ برقم هاتفه.. هذا متوقّع.. أومأت برأسي إيجابا وسجلت الرقم في ذاكرة هاتفي مع الوعد بالاتصال حال عودتي إلى البيت.. شاعرة أنني أخوض مغامرة لذيذة قد تضفي بعض الألوان الزاهية على حياتي السوداء.. ترى.. هل هذا ما كنت أحتاجه كي تتحسن حالتي النفسية؟!.. ربما.. فقد كنت أشعر أنني أفضل حالا!!.

لم أنتظر طويلا.. فقد اتصلت به حال عودتي وانفرادي بنفسي في شقتي.. ليدور بيننا حوار هادئ لذيذ ممتع وكل منا يستكشف حياة الآخر.. وهذا ما جعل المكالمة تمتد قرابة الساعتين قبل أن أنهيها بسبب النعاس الشديد الذي انتابني.. ومدركة في قرارة نفسي أن هذه قد تكون مجرد علاقة عابرة.. أو.. بداية لحياة جديدة قد تنسيني الاحباطات التي أعيشها.. من يدري؟!.

تطورت علاقتي بذلك الشاب مع مرور الأيام.. حتى بتنا نلتقي في أماكن عامة.. أو نتحدث عبر الهاتف عن أدق أسرارنا.. وأتذكر جيدا أنني بكيت كثيرا حين أخبرته بمشكلة الإنجاب

وعن محاولاتي الفاشلة للعلاج وقصتي مع طليقي الذي انقطعت أخباره عني.. فحاول أن يشد من أزري ويخبرني أن كل إنسان يخوض معارك يومية في حياته.. ولا يوجد أحد طريقه مفروش بالورود.. بالطبع هناك بعض الصحة في كلامه.. لكن هذا لا يعني أيضا ألا نشعر بالحزن لهمومنا.. فقط لأن غيرنا لديه هموم أكبر!!!.

المهم أن تقاربنا الشديد هذا أوصلنا إلى ما هو متوقّع.. إذ اتصل بي ذات يوم ليقول الكلمة السحرية:

- (بشاير).. أنا.. أنا أحبك يا حبيبتي!!.

لقد سمعت هذه الكلمة في مغامراتي العاطفية القليلة في فترة مراهقتي.. لكن.. لا أعرف لماذا شعرت بجمالها هذه المرة أكثر من أي وقت مضى.. ربما لأنني كنت بحاجة ماسة لها.. وهذا ما جعلني أصارحه بمشاعري أيضا.. وأخبره أنني أبادله الحب.. لكني كنت أنتظر منه المبادرة فحسب إرضاء لأنوثتي.

و.. كأي علاقة حب جادة.. بدأ يتحدث عن التقدم لخطبتي.. وأنه لا يهتم كثيرا لموضوع الإنجاب.. فرفضت بشدة عالمة أنه يقدم بهذه الحالة تنازلا كبيرا لا أقبله.. لكنه أصر على موقفه..

بل وظل أسابيع طويلة يتوسل إلي ويحاول إقناعي بالموافقة.. إلى أن وافقت أخيرا.. نعم.. وافقت رغم أنه اشترط ألا يعرف أحد من أفراد عائلته بمشكلتي مع الإنجاب كي لا يصل الخبر إلى والدته.. فهي كبيرة في السن وصحتها ليست على ما يرام.. وهو لا يريد إغضابها في آخر عمرها.

ليتقدم في النهاية لخطبتي من خالي.. ويتم بعدها بشهور قليلة عقد القران.. ثم حفل الزفاف الذي شعرت خلاله أنني أعود إلى الحياة مجددا.. حيث انتقلت لأعيش مع زوجي في شقة الزوجية الجديدة.. بعد أن رفض تماما أن نعيش في شقتي كونه يريدني أن أمحو كل ذكرياتي المتعلقة بزوجي السابق.. وأن أبدأ حياتي الآن بصفحة بيضاء سيحرص أن يملأها بكلمات السعادة على حد قوله!!.

كانت الأيام الأولى هادئة جميلة.. ولم أنتبه بسببها لتلك الحقيقة المخيفة التي لم ينتبه لها المحبّون على مدى التاريخ.. أن روعة الحب تكمن في بدايته فقط!!!.. نعم.. فبعد سنة من زواجنا.. أو ربما أكثر قليلا.. بدأ ذلك البرود يطل مرة أخرى على حياتي.. وبدأ زوجي يتراجع عن وعوده تدريجيا ويتحدث بين الحين والآخر عن رغبته بطفل.. خاصة مع سؤال والدته

الدائم عن تأخر الحمل والكلام المعتاد أنها تريد أن ترى أبناءه قبل موتها.. دون أن تدرك أنها ستموت ولن ترى أحفادها من ولدها هذا طالما أنا زوجته.

ولا أنسى حالة الاكتئاب التي بدأت تعود إلي تدريجيا أيضا وأنا أتذكر عقدة الأمومة وعجزي عن الإنجاب.. لذا أخبرت زوجي بيأس أن له كل الحق في الطلاق.. وأنني كنت حمقاء حين ظننت أنه سيقبل بهذه التضحية طوال العمر.. لكنه -رغم ذلك- رفض الانفصال والاستسلام بهذه السرعة.. حتى وإن كان لا أمل هناك بالإنجاب.. واقترح في المقابل أن نمنح زواجنا فرصة أخرى.. وأن نحاول إضفاء نوعا من البهجة على حياتنا.. ربما من خلال السفر مثلا في إجازاتنا.. أو الخروج مع أصدقائه وزوجاتهم على سبيل التغيير.

لا أعرف لماذا وافقت على كلامه.. رغم أن الأمر بدا شبيها بإطالة عمر ميت سريريا من خلال الأجهزة فحسب.. دون أي أمل بعودته إلى الحياة فعليا.. وقد كنت محقة.. إذ لم تجدِ كل محاولات زوجي.. رغم أننا سافرنا ذات مرة إلى (هولندا) وقضينا هناك أكثر من أسبوع.. لكن الرحلة بأكملها كانت باردة مملة.. فظلت تلك الغَصة والأجواء الكئيبة تخيم على

أيامنا هناك.. ولم أدرك للحظة أن ما أمر به من حالة نفسية سيئة طوال السنوات الماضية ستكون له تبعات كثيرة لم أتوقعها أبدا!!!!.

بدأ الأمر بتلك الحادثة الغريبة في وقت متأخر من ليلة كان يفترض أن تكون عادية ككل الليالي.. حين كنت غارقة في نوم عميق والساعة تتجاوز الواحدة فجرا بقليل.. آملة أن يكون الغد أفضل كما نتمنى دوما.. حتى لو على الصعيد النفسي على الأقل.. فنحن ننام بحال.. ونستيقظ بحال آخر.. وكأن شيئا غامضا يحدث لأرواحنا ليلا.. لكن ما حدث لروحي في تلك الليلة كان مختلفا تماما!!.

فقد استيقظ زوجي من نومه رغبة في الذهاب إلى الحمام.. لكنه فوجئ بأنني غير موجودة بجانبه في السرير!!!.. ليخرج من الغرفة باحثا عني بقلق.. ويصطدم بمنظر أشعره بالخوف كما قال فيما بعد.. إذ رآني واقفة متسمرة ملتصقة بزاوية غرفة المعيشة أحدق بالحائط دون سبب!!!.. فتنحنح وبدأ يناديني بصوت مبحوح.. لكني لم ألتفت إليه إطلاقا.. ليقترب مني بحذر ويجد عينيّ نصف مغمضتين شاردتين تنظران إلى الفراغ بلا هدف.. ثم.. راح يهز كتفي بتوتر من رهبة الموقف..

عندها انتفض جسدي بأكمله فجأة.. واستوعبت أنني لست على سريري.. فالتفتُّ إلى زوجي مصدومة وأنا أتساءل بخوف عن كيفية نهوضي من فراشي.. وذهابي إلى غرفة المعيشة كي أقف بهذه الطريقة الغريبة دون وعي أو إدراك!!.

لم يجب على تساؤلاتي.. بل احتضنني محاولا أن يشعرني بالأمان وهو يطمئنني ويخبرني أنني سأكون بخير.. وربما فعلت ما فعلته بسبب حلم أو كابوس لا أتذكر منه شيئا الآن بعد استيقاظي.. وأن علينا العودة إلى الفراش كي نكمل نومنا على أمل أن نستيقظ صباحا بكامل نشاطنا للذهاب إلى العمل.. فاستسلمت لكلماته الهادئة.. وعدت معه إلى الفراش آملة أن تكون الحادثة استثنائية ولن تتكرر.

لم تكن العودة إلى النوم سهلة بكل تأكيد.. فقد ظللت أتقلب على السرير بعض الوقت غير مقتنعة بما قاله زوجي.. كوني واثقة أنني لم أنهض من فراشي بسبب حلم.. لأننا عادة ما نتذكر أحلامنا حال استيقاظنا.. قبل أن تتلاشى من ذاكرتنا مع نهوضنا من السرير وممارسة حياتنا الطبيعية.. أما ما حدث منذ قليل فهو أمر مختلف.. إذ لم تكن هناك أي أحداث في ذاكرتي لهذا الحلم المزعوم.. لقد ذهبت إلى الفراش.. ثم أيقظني زوجي

لأجد نفسي أقف بمواجهة زاوية غرفة المعيشة.. هكذا بكل بساطة!!.. تذوب التساؤلات في رأسي مع النعاس الذي سيطر علي.. ومع حركة زوجي التي بدأت تهدأ تدريجيا.. إلى أن غرقت بدوري في عالم النوم الغامض.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد كما كنت أتخيل.. فبعد يومين فقط.. استيقظ زوجي في وقت متأخر جدا من الليل بسبب الصوت المرتفع لجهاز التلفاز.. ليخرج غاضبا مستغربا من استيقاظي في هذا الوقت وإزعاج منامه بهذه الطريقة.. لكنه صعق حين وجدني جالسة في غرفة المعيشة أشاهد التلفاز بعين خاوية.. وقد بدوت وكأنني أعيش في عالم آخر ذاتي بعيدا عن عالمنا!!!.. عندها علم أنني أفعل كل هذا وأنا نائمة أيضا دون إدراك.. تماما كما حدث في المرة الأولى.

لن أصف الموقف ولن أتحدث عن ردود أفعالي حين أيقظني وأعادني إلى الواقع.. فالأمر لا يختلف كثيرا عن المرة السابقة.. لكن.. أعترف أن زوجي احتفظ بهدوئه رغم كل شيء حين فهم ما يحدث.. إذ حاول أن يحتويني.. فأخذني إلى فراشي وهو يتحدث ويخبرني بلطف أن علي الانتباه كي لا أكرر ذلك.. ولا

أعرف في واقع الأمر كيف ينتبه المرء ويتجنب أشياء يفعلها أثناء نومه دون وعي أو إدراك أصلا!!.

أعتقد أن الصورة واضحة لا تحتاج تفسيرا.. لكني رغم ذلك.. بحثت في شبكة (الإنترنت) للمزيد من المعلومات عما يحدث لي.. لأكتشف أنني -كما توقعت- مصابة بأحد أنواع (الخطَل النومي)*.. وتحديدا داء (المشي أثناء النوم)!!.. والأسباب معروفة كما تقول مواقع (الإنترنت) المتخصصة.. فأنا أعاني من

---

* (الخطَل النومي) (Parasomnia) اضطراب حركي لا إرادي يحدث أثناء النوم.. وكلمة (خطَل) تعني (حُمق).. ويأتي المعنى (الحُمق النومي).. علما بأنه أكثر شيوعا عند الأطفال.. لكنه يحدث أيضا -وبدرجة أقل- للأشخاص الذين يعانون من مستويات عالية من الضغط النفسي أو القلق أو الاكتئاب.. وأحيانا قليلة يكون للوراثة دور في الأمر.. كما توجد بعض الأدوية التي تسبب (الخطَل النومي) كأحد أعراضها الجانبية.. ويعتبر (المشي أثناء النوم) -موضوع قصتنا- أكثر أنواع (الخطَل النومي) شهرة.. حيث يرافقه الإتيان بسلوكيات وأفعال توحي وكأن الذي يمارسها بكامل يقظته.. بل وتكون عيناه عادة نصف مفتوحتين جامدتين.. لكنه لا يمارس أي أفعال تفوق القدرات البشرية المعتادة.. فلن نجد من يسير أثناء نومه على حبل رفيع من علو شاهق كما يحدث في السينما.. أما بقية أنواع (الخطَل النومي) فتشمل التحدث.. أو الأكل والشرب.. أو التبول اللا إرادي.. أو طحن الأسنان دون سبب.. وأحيانا تمثيل الأحلام والتفاعل معها على أرض الواقع.. كأن يتحرك النائم وهو على الفراش ليضرب من حوله بشكل عشوائي وكأنه يدافع عن نفسه ضد خطر ما!!.. ولا ننسى (هلع الليل).. وهو أسوأ أنواع اضطرابات (الخطَل النومي) وأخطرها.. فقد يشمل الضرر الجسدي أيضا.. إذ يجعل الإنسان ينهض من فراشه فجأة صارخا وهو يركض هربا من عدو وهمي.. ليصطدم بقطعة أثاث أو حتى بالحائط.. أو ربما يقع من مكان مرتفع وهو يخلط بين فتحة نافذة أو فتحة الباب مثلا.. مما قد يتسبب بإصابات بليغة تصل أحيانا إلى الوفاة!!.. وقد حدثت العديد من المآسي لأشخاص مصابين باضطراب (هلع الليل) بالفعل.

ضغوط نفسية هائلة.. وقد وصلت لمرحلة جديدة متقدمة من الاكتئاب كما يبدو.. وهذه إحدى نتائجه.. بل وأكدت لي ذلك بنفسك يا دكتور حين قابلتك فيما بعد.. بالطبع.. فتاة تعشق الأطفال لكنها لا تنجب.. وقد انفصلت عن زوجها الأول لهذا السبب.. والآن تمر بعلاقة مجهولة المستقبل مع زوجها الثاني.. ناهيك عن التفكك الأسري الذي عاشته طوال حياتها بغياب والدها ثم وفاة والدتها.. فكيف سيكون حالها؟!.. لحسن الحظ لم تكن لدينا خادمة لترى ما يحدث في شقتنا.. وإلا أصيبت بالرعب وطلبت العودة إلى بلدها بدلا من مستشفى المجانين المصغر هذا!!.. فقد كنا نعتمد فقط على خادمة عائلة زوجي التي تزورنا مرتين أسبوعيا لتنظيف المكان.. وعلى السائق الذي يأتي لنا يوميا بوجبة الغداء التي تصر والدة زوجي على تجهيزها لنا.

لم تكن هذه سوى البداية.. إذ تكرر الأمر للمرة الثالثة بعد أيام قليلة وبطريقة مشابهة لما حدث سابقا.. بل وتكرر أيضا للمرة الرابعة.. ثم الخامسة!!!.. حيث كانت هي الأسوأ والأكثر رعبا بالنسبة لي ولزوجي.. فقد أيقظني ليلتها من النوم ليخبرني أن هناك رائحة كريهة في الغرفة!!.. ووجدته يحدق بي باستغراب

شديد.. وكأنه يحاول أن يتأكد مما يراه بسبب إضاءة النوم الخافتة التي تحجب الكثير.. ليسألني بصوت هامس متوتر عن مصدر العرق كريه الرائحة الذي يملأ وجهي!!.. ظللت أحدق به للحظات بتثاقل وأنا لا أفهم ما يقصد.. ثم بدأت أشم الرائحة السيئة التي تنبعث مني بالفعل كما يقول.. مع شعور غريب بعدم الارتياح دون أن أفهم السبب.. فقمت بإبعاد البطانية عن جسدي لأكتشف أن ثيابي مبللة بالعرق الذي أصبح معجونا بالأتربة.. وأن قدميّ بمنتهى القذارة.. حتى تلوث الفراش بأكمله بسببي!!!.

عندها قال زوجي بذهول:

- يا إلهي.. هل.. هل خرجت من البيت أثناء نومك؟!!.

نظرت إليه بذعر ألجم لساني تماما.. لم أكن بحاجة لأجيبه.. فالحقيقة واضحة لا تحتاج تعليقا.. ويعلم الله ما كنت أفعله.. وكم من الوقت قضيته في الخارج حافية القدمين في ثياب النوم وسط الأجواء الحارة والمغبرة التي جعلتني أعرق بهذه الطريقة.. قبل عودتي إلى شقتي ثم إلى فراشي وكأن شيئا لم يكن!!!.

وأمام نظراتي التائهة.. قال بتوتر ملحوظ:

- (بشاير).. يجب أن آخذك إلى المستشفى.. إن حالتك تسوء!!.

قلت وأنا ألوح بيدي وكأنني أنفي عن نفسي تهمة:

- لا.. لا.. أنت لن تأخذني إلى مستشفى باطني بكل تأكيد.. بل إلى مستشفى الطب النفسي.. وأنا لن أقبل الذهاب لمكان مشبوه كهذا.

تنهد وهو يقول:

- لا أفهم هذا الرفض العنيف.. مستشفى الطب النفسي مستشفى حكومي محترم وليس مخفر شرطة.. يجب أن آخذك إليه لتخضعي للعلاج.. الأمر فاق حدود المعقول!!!.

نهضت من فراشي وأنا أقول بصوت باكٍ:

- لا.. لا.. لن أذهب!!!.

قلتها دون أن أنتظر منه الرد.. بل اتجهت بخطوات مضطربة إلى الحمام.. حيث وضعت كل ثيابي في سلة الغسيل.. ثم

وضعت جسدي بأكمله تحت شلال الدش الساخن الذي راح يصطدم برأسي دون توقف.. أحاول أن أتذكر شيئا مما فعلته في الخارج.. أين كنت يا ترى؟!.. إلى أين ذهبت؟!.. أفكر.. أفكر.. لكن دون جدوى.. كل ما أعرفه أنني نمت.. ثم أيقظني زوجي بعدها لأكتشف أنني خرجت أثناء نومي.. وعدت دون إدراك مني كالعادة.

قمت بعدها باستبدال البطانية وسط نظرات زوجي المترقبة.. ثم استلقيت على السرير وغطيت جسدي بأكمله باللحاف دون أن أنطق بكلمة.. وكأنني أبحث عن الحماية من العالم كله.. أتساءل للمرة الألف عما أكون قد فعلته أثناء خروجي.. أتساءل إن كان أحدهم رآني في الخارج وحاول التحدث إلي.. مخيف أن يسير الإنسان أثناء نومه.. والأكثر رعبا أن يوقظه أحدهم ويعيده إلى الواقع.. ليجد نفسه هشا ضعيفا بثياب النوم وفي مكان غير مألوف!!.. لحسن الحظ على الأقل أن هذا لم يحدث.. الغريب أنني كنت أشعر بإرهاق لا يوصف.. وكأنني خرجت لفترة طويلة أثناء نومي وقد بدأ جسدي الآن يدفع ثمن الجهد الذي بذله.. و.. خلال تلك اللحظات الخاطفة قبل النوم.. تسربت الخواطر إلى عقلي.. ذكريات كثيرة مريرة

اختلطت ببعضها.. إلى أن نمت أخيرا من شدة الإرهاق.

استيقظت صباح اليوم التالي بمزاج سيىء للغاية.. حتى أنني ذهبت إلى العمل متأخرة دون استئذان.. وحال وصولي.. اتجهت إلى مكتبي محاولة أن أتجنب كل زملائي.. ذهني يمتلىء بعشرات التساؤلات التي لا أملك إجابة عنها.. أتذكر ما قرأته عن مرض (المشي أثناء النوم) أثناء بحثي عبر (الإنترنت).. فالعقل الباطن هو الذي يملك زمام الأمور حينها ويتحكم بكل تصرفات النائم.. في حين يغيب عقله الواعي الذي يفترض أن يقود حياته.. المشكلة أن العقل الباطن مشوه بشكل أو بآخر بسبب العقد النفسية الدفينة التي يحملها كل منا!!!.. أي ستكون كارثة لو أطلقنا للعقل الباطن العنان كي يتحكم في حياتنا.. فمن يعلم أي مصيبة سيرتكب.. يا إلهي.. يبدو إنني أحتاج منوما لعقلي.. وليس لجسدي!!.

ظللت أفكر بكل هذا إلى أن داهمني الوقت وانتهت ساعات العمل.. لأعود إلى شقتي وقد طرأت في ذهني فكرة بسيطة لكنها فعالة.. فقد طلبت من زوجي أن يقفل الباب في المساء.. وأن يضع المفتاح بمكان لا أعرفه كي لا أتمكن من الخروج أثناء نومي.. ساعتها لن يرتكب عقلي الباطن أي حماقات خارج

نطاق الشقة.. وقد استحسن زوجي الفكرة وقام بتنفيذها في نفس اليوم.

فظللت في الأيام التالية أنهض بين الحين والآخر أثناء نومي وأبدي بعض التصرفات الغريبة غير المضرة.. لكن بعضها كان مزعجا كفيلا بإيقاظ زوجي.. كأن أرفع صوت التلفاز كما حدث في مرة سابقة.. أو أن أخرج من الغرفة ثم أعود إليها.. فأغلق الباب وأفتحه باستمرار دون هدف.. إلخ.. ويبدو أن زوجي لم يعد يطيق ما يحدث.. فقد صارحني بعد فترة أنه سئم هذا الوضع.. وأنه يعيش معي حياة غير صحية بعيدة عن الاستقرار.. والواقع أنني لا ألومه كثيرا على ما قاله.. ولو انعكست الأدوار لما بقيت مع زوجة كهذه ليلة واحدة.. لذا أخبرته باستسلام أنني سآخد بكلامه.. وسأذهب إلى مستشفى الطب النفسي لأتعالج من مرض (المشي أثناء النوم) هذا.

لكن ردي لم يكن كافيا بالنسبة له.. فقد عاد لنفس الإسطوانة القديمة.. وراح يتحدث مرة أخرى عن الرغبة بالإنجاب.. وعن عدم إدراكه بحجم التضحية حين أحبني وتقدم للزواج مني.. وأن الفرصة التي طلبها لتحسين علاقتنا لم تأتِ بنتيجة.. حسنا.. ما زالت الرغبة بالإنجاب تقتلني أيضا.. ولم أعد أرى أي فائدة

من استمرار زواجنا بالفعل.. وهذا ما جعلني أختصر عليه الطريق وأطلب الطلاق للمرة الثانية.. هكذا بكل بساطة.. ويبدو أنه فوجئ بردة فعلي السريعة ورغبتي بإنهاء كل شيء.. فأخذ نفسا عميقا وقد بدا عليه التردد.. قبل أن يطلب مني تأجيل الأمر قليلا.. كون الطلاق خطوة يصعب اتخاذها مهما اتفق الطرفان عليها على حد قوله!!.

المشكلة أنني لاحظت أيضا في الآونة الأخيرة تغييرا في تصرفات زوجي.. وشعرت أنه يخفي عني أمرا ما.. فقد بدا هذا واضحا من انشغاله الدائم بهاتفه الذي بات يستخدمه أكثر من الماضي.. ومحادثاته على وسائل التواصل الاجتماعي التي ينهيها حال اقترابي منه.. وكأنه لا يريدني أن أنظر إلى شاشة هاتفه!!.. الأمر واضح.. فكل ما يفعله يوحي بأنه على علاقة بفتاة أخرى.. إلا أنه ظل يقسم أنني مخطئة.. ويتحجج بأعذار واهية لم تقنعني أبدا.

لكن.. الخيانة دائما تنكشف.. والأنثى تملك من الذكاء الفطري ما يؤهلها لكشف أي ألاعيب يقوم بها زوجها.. هذا ما قلته لي بنفسك ذات مرة يا دكتور.. وهذا ما حدث حين انكشف كل شيء في تلك الليلة التي عاد فيها زوجي إلى البيت متأخرا

مدعيا أنه كان في السينما مع أصدقائه.. فلسبب ما.. لم أقتنع بكلامه.. بل كنت واثقة بالمقابل أنه كان برفقة فتاة أخرى.. صوت في أعماقي ظل يؤكد لي ذلك .. وهذا ما جعلني اقترب منه كثيرا وكأنني على وشك احتضانه.. فبدا عليه الاستغراب والتوتر كوني لم أفعل شيئا كهذا منذ مدة.. لأنتبه أن ثيابه اصطبغت برائحة نسائية لا يخطئها الأنف.. اختبار بسيط للغاية فشل فيه بامتياز إن صح التعبير!!.

أتذكر أنني دفعته بقسوة ليلتها.. ووضعته تحت الضغط ليعترف.. لكنه ظل يقسم أنه كان مع أصدقائه بالفعل في أحد المجمعات التجارية.. وقد أراد أن يجرب عطرا نسائيا ليشتريه لي.. لكن العطر لم يعجبه.. فتجاهل الأمر ودخل بعدها السينما!!.. بالطبع لم أقتنع بكلامه.. فهو لم يشترِ لي أي هدايا منذ مدة طويلة.. لذا طلبت منه صراحة أن يسمح لي بتفتيش هاتفه.. وقد نفذ طلبي ببساطة!!.. لكني لم أجد ما يريب.. مجرد رسائل بريئة من أصدقائه وأقاربه.. عموما.. يستطيع محو كل الصور والرسائل المشبوهة أولا بأول.. الخلاصة أنني لم أقتنع بكلامه.. إلا أنني في النهاية اضطررت إلى التخاذل أمام قسمه.. منتظرة ما سيحدث في الأيام القليلة القادمة التي قد

يتحدد على إثرها مصير زواجنا.. غريب أن تكون نقطة ضعفي هي نفسها سر قوتي وجرأتي وعدم خوفي من الطلاق.. كوني لن أكون مسؤولة عن تربية طفل وما يتبعه من مسؤوليات قد تصل إلى قضايا نفقة ومحاكم.. إلخ من مشاكل الطلاق المعتادة التي يدخل الأطفال طرفا فيها.

ومع كل هذه الفوضى التي أعيشها في حياتي بتلك الفترة.. جاءت الحادثة الأخرى بعد أقل من أسبوع.. والتي حملت الدليل المؤكد على خيانة زوجي!!!.. كان هذا حين ذهب إلى الحمام للاغتسال وحلق لحيته تأهبا للخروج مع أحد أصدقائه على حد قوله.. إذ رن جرس هاتفه النقال.. فنهضت من مكاني بحذر لأنظر إلى الشاشة دون أن أفهم سبب الفضول الذي انتابني لمعرفة هوية المتصل.. ربما هي غريزة الأنثى التي تحدثت عنها قبل قليل؟!.. فوجدت اسم شخص يدعى (بدر) على كاشف الرقم.. لكني لم أقتنع رغم ذلك.. شعور غريب سيطر علي أن المتصل في واقع الأمر أنثى!!.. عندها حسمت أمري وأجبت على المكالمة دون أن أدرك كيف سأتصرف لو كان المتصل رجلا بالفعل.. لكن.. قبل أن أنطق بكلمة.. سمعت صوتا أنثويا مائعا يقول بدلال:

- أهلا حبيبي.

سألتها بغصة:

- من أنتِ أيتها الحقيرة؟!.

و.. يبدو أنها صعقت حين سمعت صوتي.. إذ أقفلت الخط مباشرة وتركَتْني متسمرة في مكاني مصدومة عاجزة عن النطق!!!.. فرغم ثقتي المسبقة بخيانة زوجي.. إلا أن عثوري على دليل لا يقبل الشك شيء آخر تماما.. أنظر حولي بضياع.. معدتي تؤلمني.. قلبي ينبض بدقات متسارعة وأنا أنتظر خروج زوجي الحقير من الحمام.. ليخرج بعدها بالفعل مرتديا روب الاستحمام وهو ينشف شعره.. ويبدو أنه انتبه أن هناك أمرا ليس على ما يرام.. خاصة حين رحت أحدق به بعينين دامعتين رأى فيهما الخذلان والغضب معا!!.

لم يجد الوقت ليسألني عما دهاني.. إذ انفجرت بوجهه باكية وأنا أقول:

- أيها الحقير.. أيها اللعين.. لقد طلبت منك الطلاق أكثر من مرة.. لكنك أصررت على الاستمرار.. فلماذا تخونني بعد كل هذا؟!.. من هذه الحقيرة؟!.. أخبرني من هي؟!.

تغيرت ملامحه إلى التخاذل وقد شعر أنه وقع في الفخ ولا مجال للإنكار هذه المرة.. ليقول بانكسار:

- سامحيني.. أنا آسف.

صرخت بجنون:

- آسف؟!.. هل تظن أن (آسف) كلمة سحرية تمحو كل مساوئك؟!.. هل كنت ستقبل مني الاعتذار لو كنت أنا من تخونك؟!.. تبا لكم ولعقليتكم الذكورية القذرة!!!.

رد بهدوء محاولا تجنب غضبي:

- سأستبدل ثيابي وأخرج.. أعتقد أنك تحتاجين إلى البقاء وحيدة.. وسنتحدث لاحقا.

قلت بتهكم وعصبية كادت أن توقف قلبي:

- يا له من عذر مضحك للخروج.. وكأنك تقدم لي خدمة.. أخرج.. لا أريد أن أراك مرة أخرى.. أخرج عليك اللعنة.. ستطلّقني شئت أم أبيت.. لن أعيش معك يوما واحدا بعد الآن!!.

لم أكتفِ بكلامي هذا.. بل أخرجت ثيابه من الدولاب ورحت أبعثرها حولي بطريقة هستيرية.. لكنه تجاهل كل شيء واستبدل ثيابه سريعا ليخرج بعدها من الشقة.. لقد خذلني زوجي بعد أن أخبرته عمن خذلني قبله!!!.. وهذا قمة الألم.. لذا لا داعي للحديث عن الحزن الشديد الذي مزق قلبي.. وذلك الشعور البائس بالوحدة واليأس من كل شيء.. فالوحدة ليست أن تكون بعيدا عن الناس.. بل حين تدرك أن لا أحد يهتم بأمرك!!.. خاصة وأنني أخفيت عن الجميع كل البرود المحيط بحياتي الزوجية.. حتى شقيقتي نفسها.. فأنا أكره أن أرى الشفقة في عيون الآخرين.

ربما هذا ما جعلني أكثر حزنا وانكسارا.. إذ قضيت اليوم بأكمله على فراشي.. فلا أفعل سوى البكاء.. ثم التفكير.. والبكاء.. إلخ.. إلى درجة أنني فكرت جديا في الانتحار.. لكني تراجعت.. لأنني لم أرتكب جريمة قتل من قبل.. ولا أريد أن تكون أول جريمة هي تلك التي أرتكبها في حق نفسي.. يكفي ما حدث لها من مآسٍ.. كما ترون.. استنزاف ذهني مرهق للغاية أجبرني في النهاية على النوم.. دون أن أدرك أو أتوقع ما

يخبئه لي الغد من مصائب جديدة!!!.

ففي وقت مبكر جدا من صباح اليوم التالي.. وبعد ساعات من النوم القلِق.. شعرت أنني أعود إلى عالم الواقع تدريجيا لسبب غير مفهوم.. أفتح عينيّ ببطء وأسأل نفسي.. لماذا استيقظت الآن؟!.. فما يزال الوقت مبكرا جدا.. وأشعة الشمس لم تتسلل إلى غرفتي حتى الآن.. هل استيقظت بسبب الحزن الذي حطم قلبي ليلة أمس وجعل نومي قلقا؟!.. لا.. هناك سبب آخر.. فالفراش مبلل بالكامل!!.. وتلك الرائحة الغريبة التي تملأ أنفي.. أزلت اللحاف عن جسدي بذعر.. إضاءة النوم خافتة لكنها كافية لأرى أن ثيابي اصطبَغَت باللون الأحمر حتى لوثت السرير بأكمله.. لا أحتاج إلى ذكاء لأدرك أنها دماء.. خاصة مع السكين الملوثة بدورها بالدم والملقاة بجانبي بإهمال!!!.

أنظر حولي مرة أخرى وأخرى غير مصدقة ما أراه.. فأجد قدميّ متشحتين بالقاذورات.. لقد خرجت حافية كما يبدو.. تماما كما حدث في المرة السابقة.. هل.. هل يعقل أن يقودني عقلي الباطن أثناء نومي للخروج.. و.. ارتكاب جريمة قتل.. ثم يعيدني

بعدها إلى سريري بكل براءة*؟!!.. لا أحتاج إلى ذكاء لأصل إلى هذا الاستنتاج.. فكل شيء يوحي بذلك.. ماذا سأفعل؟!.. بمن أتصل؟!.. لمن ألجأ؟!.. لا أعرف؟!.. أشعر أن حياتي بأكملها أصبحت عبارة عن غرفة مظلمة.. غرفة واحدة مظلمة.

ظللت على هذا الحال دقائق طويلة.. أحاول أن أفكر بشيء من

---

* تجدر الإشارة إلى أن هناك أحداثا واقعية قد يكون بعضها أغرب بكثير من قصتنا هذه.. منها ما حدث للأمريكي العجوز (جيمس كورينز) (James Currens) والذي كان يعاني أيضا من مرض (المشي أثناء النوم).. ففي ذات يوم من تسعينيات القرن الماضي.. نهض من سريره دون وعي.. وسار نائما وهو يحمل عكازه.. ليستيقظ بعد فترة وجيزة مصدوما حين وجد نفسه وسط بحيرة قريبة من بيته.. حيث غاص فيها حتى صدره وعجز تماما عن الخروج بعد أن علقت قدماه في الطين!!.. ولم يكن هذا أغرب ما بالأمر.. إذ انتبه العجوز فجأة أنه محاطا بمجموعة من التماسيح!!!.. نعم.. مجموعة من تماسيح البحيرة أحاطت به لالتهامه.. فأصيب بحالة هلع وراح يصرخ طلبا للمساعدة و-في نفس الوقت- يستخدم عكازه لإبعاد التماسيح عنه.. إلى أن سمع أحد المارة صراخه لحسن الحظ.. واتصل مباشرة بفرق الإنقاذ التي حضرت بسرعة وأبعدت التماسيح لتنقذ العجوز.. وهناك حادثة أكثر غرابة جرت أحداثها في منطقة (دولويتش) (Dulwich) التي تقع في جنوب (لندن).. حين انتبه أحد المارة في وقت متأخر من الليل لوجود فتاة متعلقة بكل هدوء بحلقة رافعة إنشاءات عملاقة وعلى ارتفاع 40 مترا تقريبا!!!.. فقام بالاتصال بالشرطة التي حضرت بسرعة مع فرق الإنقاذ.. وحين قاموا بالصعود لإنقاذ الفتاة.. اتضح لهم أنها نائمة لا تشعر بما يدور حولها.. أي أنها خرجت من البيت وسارت دون وعي إلى أن وصلت لتلك الرافعة.. فتسلقتها وتعلقت بحافتها على هذا الارتفاع المخيف!!!.. وقد قاموا بإنقاذها بحذر شديد دون إيقاظها كي لا تفاجأ بالمأزق الذي وضعت نفسها فيه بسبب مشيها أثناء نومها.. مما قد يتسبب بارتباكها وسقوطها.. ولنا أن نتخيل حجم الصدمة على ملامحها حين تم إيقاظها وإبلاغها بما فعلَته!!.. وقد أكد أبواها فيما بعد أن ابنتهم تعاني من داء (المشي أثناء النوم) بالفعل.. لكنهم لم يتوقعوا أبدا أن تخرج وترتكب فعلا كهذا.

العقلانية أمام واقع مجنون مخيف.. ماذا عن الذهاب لعملي اليوم؟!.. فليذهب العمل إلى الجحيم.. هناك عشرات الأعذار للتغيب.. يجب أن أركز على المصيبة التي أراها أمامي.. وبما قد أكون فعلته أثناء نومي.. أعيد سيناريو أحداث ليلة أمس حين طردت زوجي من الشقة.. بالطبع.. لقد نسيت حينها كل ما يتعلق بضرورة إخفاء المفتاح بعد قفل الباب!!!.. هذا سبب تمكني من الخروج كما هو واضح.. أفكر مصدومة.. هل من الممكن أن عقلي الباطن صب غضبه على زوجي وقتله؟!.. لا أجد تفسيرا آخر.. فعقلي الباطن هو أنا في نهاية الأمر وربما أراد الثأر لي!!!.

لكن.. لو كنت قد قتلت زوجي.. فكيف علمت بمكانه كي أذهب إليه وأرتكب جريمتي أصلا؟!.. لقد خرج مساء أمس دون أن يخبرني بوِجهته.. وحتى لو قضى الليلة في بيت عائلته على سبيل الافتراض.. لا يمكن أن أكون قد اقتحمت المكان ومشيت إلى غرفته.. ثم قتلته بكل بساطة وخرجت دون أن أوقظ أحدا.. بل كيف سأدخل أصلا وأنا لا أملك مفتاح بيتهم؟!.. لا.. هذا غير منطقي إطلاقا!!.. الاحتمال الآخر أن يكون قد عاد أمس في وقت متأخر ورآني أمشي في الشقة

أثناء نومي.. ثم حاول أن يوقظني.. فانتقم لي عقلي الباطن وجعلني أقتله تنفيسا عن غضبي المكبوت.. هذا الاحتمال منطقي جدا لأحداث غير منطقية أعيشها الآن!!!.

أخرجت هاتفي النقال بيد ترتجف دون توقف لأتصل بزوجي.. لحظات بدت ثقيلة للغاية وأنا ما زلت أحدق -بتقزز- بالدماء التي ملأت ثيابي وسريري.. لكن.. جهازه مغلق!!.. إنه لا يغلق جهازه أبدا.. ماذا سأفعل الآن؟!.. هل أذهب إلى المخفر وأعترف بكل شيء؟!.. كيف أعترف بجريمة لست متأكدة من ارتكابها أصلا رغم كل الدلائل؟!.. وهل الاعتراف سيفيدني؟!.. أفكر بكل هذا وأنا أقضم أظافري دلالة على التوتر الشديد.. فكوني ارتكبت جريمتي هذه وأنا مغيبة عقليا بسبب مرض (المشي أثناء النوم).. لن يعني أبدا أنني سأخرج ببساطة من المشكلة.. بل سأظل أتنقل بين السجون أثناء التحقيقات قبل أن يثبت الطب النفسي إصابتي بهذا المرض.. ولا أعلم إن كان باستطاعة الطب النفسي إثبات ذلك فعليا.. فربما لن أمشي أثناء نومي مرة أخرى بعد أن أفرغت كل الضغوط النفسية بارتكابي لهذه الجريمة.. لا أعرف مدى دقة كلامي طبيا لكن الاحتمال يظل قائما!!.. المهم أنني سأكون -في أفضل الأحوال-

نزيلة مستشفى الطب النفسي.. وسأبدو دوما في نظر المجتمع الفتاة القاتلة المجنونة.. لا.. لن أسمح بهذا أبدا.. يجب أن أخفي أمر جريمتي.

هذا ما قلته لنفسي.. وهذا ما جعل النشاط يدب في جسدي فجأة.. فنهضت من فراشي بسرعة متجهة إلى الحمام لأرمي نفسي بثياب النوم الملطخة بالدماء تحت الدش الساخن.. أغتسل من كل شيء.. ولو كان الأمر بيدي لبدّلت جِلدي نفسه!!.. ثم خلعت ثيابي ورميتها مع البطانية والشرشف والوسادة في كيس قمامة.. ورحت بعدها أنظف غرفتي جيدا وأنا أردد بانهيار:

- يجب أن أخفي كل آثار الجريمة.. يجب أن أخفي كل آثار الجريمة!!.

أفكر بكيفية الخروج والتخلص من أدلة الجريمة دون أن ألفت انتباه أحد.. إنني في بيت من دورين قام أصحابه بتحويل كل دور منه إلى شقة.. وشقتي تقع في الدور الأرضي.. أما في الدور العلوي فتسكن أسرة صغيرة لم تتجاوز علاقتنا بهم إلقاء التحية حين نتصادف عند مواقف السيارات.. علما أن هناك

مدخلا خاصا لكل منا.. حسنا.. لا أعتقد أنهم سينتبهون إلى شيء.. إلا لو شاء سوء الحظ أن أصادف أحدهم في الخارج وفي هذا الوقت المبكر جدا.. حينها قد أثير الشكوك.. لكن.. لا توجد حلول أخرى.. يجب أن أحاول.. فهذا أنسب وقت لمحو آثار الجريمة.

ارتديت عباءتي.. وخرجت بكيس القمامة بتوجس شديد.. أسير عبر الممر المؤدي إلى الباب الخارجي.. نظرة خاطفة غير مقصودة إلى حديقة البيت الداخلية الصغيرة.. و.. تسمرت في مكاني فجأة!!!.. التربة مبعثرة.. العشب في هذه البقعة أتلف تماما.. هل ارتكبت جريمتي ودفنت الجثة هنا؟!.. ألطف بي يا رب.. ازدردت لعابي وقد أدركت فجأة أن هناك شيئا واحدا في هذا العالم أسوأ من دفن جثة.. وهو استخراجها بالطبع!!.. فهذه الطريقة الوحيدة لأتأكد أنني قتلت زوجي بالفعل وليس شخصا آخر.. لكني لا أجرؤ على فعلها.. لا أجرؤ أبدا.. أرى أيضا رفشا صغيرا ملقى بإهمال في الحديقة.. لقد اشترى زوجي هذا الرفش في بداية زواجنا.. وتركه هنا بإهمال عله يحتاجه لاحقا في تنسيق الحديقة.. ترى.. هل استخدمت الرفش في دفن تلك الجثة المزعومة؟!.. ربما لهذا السبب أشعر

ببعض الآلام في معصمي!!.. لا.. لست متأكدة.. فجسدي بأكمله يؤلمني.

أتساءل أيضا إن كان أحد من الجيران قد رآني أثناء دفني للجثة.. لكني أطرد الخاطر من ذهني مباشرة.. فكما ذكرت.. نحن نسكن الطابق الأرضي.. ولنا مدخلنا الخاص كحال جميع البيوت التي يتم تصميمها لتأجيرها على أكثر من عائلة.. ونافذة الطابق الثاني لا تطل على حديقة البيت الداخلية.. عموما.. لو كان أحدهم قد رأى ما يثير الشك لأبلغ الشرطة مباشرة ولن ينتظر كل هذا الوقت.. أطمئن نفسي بهذا الكلام وأنا أرتب الحديقة وأنظف زواياها من الأتربة.. ذهني يلتهب تفكيرا وقلقا وقد تلوثت عباءتي بالأتربة.

أسير بقدمين مرتجفتين إلى الخارج.. ثم أتجه مباشرة إلى السيارة وأنا ألتفت دون توقف.. لا يوجد أحد اطلاقا في هذا الوقت المبكر.. أفتح الصندوق لأضع فيه كيس القمامة.. ثم أقود سيارتي وذهني يطرح السؤال مرارا وتكرارا عن ضحيتي.. من الذي قتلته؟!.. زوجي؟!.. أو شخصا آخر؟!.. أو ربما حيوانا؟!.. قطا أو كلبا مثلا؟!.. لست متأكدة من حجم الحفرة.. لكن كل الاحتمالات قائمة.. المهم الآن التخلص من كل آثار الجريمة

وسأفكر لاحقا بهوية الضحية.

وصلت إلى منطقة سكنية أخرى بعيدة نسبيا.. حيث تخلصت من الكيس في حاوية القمامة هناك.. لأعود بعدها إلى شقتي.. ثم جلست أنتظر على أحر من الجمر موعد الاستيقاظ المعتاد.. الوقت يمر ببطء شديد.. أشعة الشمس تدخل غرفتي على استحياء.. إلى أن اقتربت الساعة من السادسة والنصف أخيرا.. عندها تركت رسالة هاتفية لزميلة لي أخبرها أنني استيقظت من النوم للتو لكني أشعر بالإرهاق قليلا.. وسآخذ إجازة عارضة اليوم.. ثم.. انتظرت ساعة أو ساعتين إضافيتين.. لأتصل بشقيقة زوجي أسألها عنه وأخبرها أننا تشاجرنا مساء أمس وتركني دون أن يخبرني بمكان وجهته.. لتجيب بقلق أنه لم يزرهم منذ بضعة أيام.. أنهيت المكالمة بذعر.. واتصلت بمقر عمله.. أحد زملائه يخبرني أن زوجي لم يأتِ للعمل حتى الآن.. ولم يتصل لتبرير تغيبه!!.

حسنا.. الأمور تتضح أكثر وأكثر.. اتصلت بعدها مباشرة بالشرطة لأخبرهم أن زوجي خرج مساء أمس بعد شجار عنيف بيننا.. ولم يعد منذ ذلك الحين.. فأخبروني أن الشخص لا يعتبر متغيبا إلا لو مرت 24 ساعة على غيابه.. معلومة نعرفها

جيـدا لكن لا بد من التصنّع وتمثيل دور الزوجة الملتاعة.

جلست بعدها في شقتي أفكر إن كان هناك أي احتمال آخر لم يطرأ بذهني.. أعصابي تحترق بهدوء حتى ليخيل إلي أنني أشم رائحة الشياط!!!.. أفكر مرة أخرى بنبش الحديقة.. فما زال هناك احتمال 1% أن أكون مخطئة رغم كل الأدلة التي أراها أمامي.. لكني أطرد الفكرة من رأسي مباشرة وأنا أتخيل منظر الجثة الملوثة بالدماء والأتربة.. سيكون فيلم رعب أعيشه واقعا.. مستحيل.. لن أفعلها.. يا إلهي.. اليوم يمر بطيئا باردا للغاية.. وبرتم واحد لا يتغير.. أفكر بالدماء التي عثرت عليها في سريري.. أفكر بالجثة المدفونة في الحديقة.. والتي قد تخرج من مكانها وتقتحم شقتي لتقتص مني.. نعم.. فالخيال يلعب دوره في مواقف كهذه!!.

في صباح اليوم التالي -وقبل التوجه إلى عملي- ذهبت إلى المخفر لتقديم بلاغ باختفاء زوجي.. فأخبرتهم بكل خلافاتنا.. وبموضوع خيانته.. كنت صادقة بكل شيء.. سوى إصابتي بمرض (المشي أثناء النوم).. إذ وجدت أنه من الضروري أن أبعد الشبهات عن نفسي.. لتمر بعدها الفترة الصباحية وهي متشحة باللون الأسود إن صح التعبير.. فكنت في أسوأ مزاج

ممكن.. حتى لاحظ جميع زملائي ذلك.. لكني لم أكترث.. بل رأيت -بالمقابل- أن هذا قد يبدو منطقيا لأي امرأة مسكينة ملتاعة اختفى زوجها فجأة.

في مساء نفس اليوم فحسب.. فوجئت باتصال هاتفي من أحد الضباط يخبرني أنهم يبحثون عن زوجي لكنهم لم يعثروا له على أثر حتى الآن.. معدتي تتقلص دون توقف كما باتت تفعل في الآونة الأخيرة.. أنفاسي تضطرب.. والضابط يقول بأمل:

- هذا لا يعني أن مكروها أصابه.. سنعثر عليه سليما معافى بإذن الله.. حينها سنفهم منه سبب غيابه.. سنظل عموما على اتصال بك.

أشكره بانكسار.. وأجلس على السرير أفكر.. أفكر.. التفكير ليس كيانا ماديا.. فكيف يؤلمني بهذه الطريقة؟!.. حتى التفكير بات يؤلم!!.. ثم.. انتبهت فجأة إلى أنني ضعيفة واهنة جدا وبالكاد أملك القوة لأنهض من مكاني.. وتذكرت أنني لم آكل شيئا تقريبا في اليومين الماضيين.. لذا نهضت إلى الصالة أولا لأقوم بتشغيل جهاز التلفاز كي أقتل صوت الهدوء المقيت

هذا.. نعم.. فللهدوء صوت في تلك الظروف!!.

اتجهت بعدها إلى المطبخ لأعد شيئا آكله.. بعض الجبن والخبز والزيتون.. وسلة خضراوات صغيرة.. أحمل كل هذا على صينية وأسير عائدة بطريقة آلية ناحية الصالة.. ليسقط كل شيء من يدي وأطلق صرخة مدوية لم أطلق مثلها في حياتي بأكملها!!!!.. مؤكد أن قلبي توقف للحظة قبل أن يعود إلى العمل مرة أخرى.. لأن ما رأيته يفوق كثيرا قدرتي على التحمل.. فقد وجدت زوجي أمامي!!!.. هل.. هل هذا شبح؟!.. لا.. إنه زوجي.. يقف بحزن وانكسار وهو ينظر إلي وإلى الطعام الذي سقط على الأرض بخجل.. ثم يقول بهدوء:

- المعذرة إن كنت أخفتك!!.

اقتربت منه.. ووضعت يدي على صدره وأنا أقول بذهول:

- أنت.. أنت بخير؟!!.

رد باستغراب:

مكتبة
t.me/t_pdf

- ولماذا لا أكون بخير؟!.

أطلقت زفرة حارة وقد شعرت بارتياح هائل لا يصدق.. ثم قلت:

- لقد غبت عني قرابة اليومين.. ظننت أن مكروها أصابك.. بل أنني قدمت للشرطة بلاغا رسميا بتغيبك!!.

غمغم بتوتر:

- غبت لأنك طردتني من الشقة.. كنت غاضبة جدا وفي حالة هستيريا.. حتى بدا التفاهم معك مستحيلا.. فوجدت الأنسب أن أتركك لفترة من الزمن علك تهدئين.. لقد شعرت أيضا أن حياتي على المِحَك.. وأن علي الانفراد بنفسي والتفكير بما يتوجب فعله في المرحلة القادمة.. لم أكن أريد أن أسبب القلق لعائلتي وأشعرهم أنني أعاني بعض المتاعب الزوجية.. ففضلت المبيت ليلتين عند أحد أصدقائي.. والذي وافق مشكورا على استضافتي في ديوانية بيته.. كما تغيبت عن العمل دون عذر.. فهذا آخر ما يشغل بالي الآن.

هل يعقل أن تنتهي مخاوفي ولحظات الرعب التي عشتها بهذه البساطة؟!.. يا إلهي.. وكأنني بطلة فيلم متجهة إلى حبل

المشنقة وقد فقدت كل أمل بالحياة.. لتظهر براءتي فجأة في مشهد درامي لا ينسى!!!.. لذا انفرجت أساريري وهرعت لهاتفي النقال كي أتصل بالشرطة وأخبرهم أن زوجي عاد أخيرا.. وأنه بخير.

لكن.. حال الانتهاء من المكالمة.. توترت أعصابي مرة أخرى حين تذكرت السكين.. الدماء.. (الشيء) المدفون في الحديقة والذي ما زلت أجهل هويته!!!.. سأخفي الأمر عن زوجي إلى أن أفهم ما يحدث.. فما الجدوى من إخباره إن كنت سأطلب الطلاق؟!.. إنه لن يكون زوجي بعد أيام قليلة من الآن.. نعم.. لا أظن أنني سأتمكن من الاستمرار معه بعد خيانته وبعد الأوقات العصيبة التي عشتها مؤخرا بسببه.. لقد فقدت الثقة فيه.. والثقة أصعب شيء تعثر عليه.. وأسهل شيء تفقده!!.. لذا قلت بحزم:

- لقد فكرت جيدا بحياتنا الزوجية في اليومين الماضيين.. وقررت أنني لا أريد الاستمرار معك.. أريد الطلاق!!.

نظر إلي بالمقابل.. ثم قال بعد تفكير:

- هذا حتمي.. لا أعتقد أننا نستطيع الاستمرار.. آسف جدا.. لقد كنت مخطئا حين ظننت أن الحب وحده سيكفي.. لكني أدرك الآن أن أي زواج دون أطفال سيظل ناقصا فارغا إلى الأبد.. ليتني استمعت إليك في بداية علاقتنا حين حذرتني من ذلك.. عموما.. سآخذ حاجياتي وسأذهب إلى بيت العائلة.. لا مفر من كشف الحقيقة أمامهم الآن.. سأتصل بك لاحقا للتفاهم حول إجراءات الطلاق.

قالها وتجاوزني متجها إلى غرفة النوم دون أن ينتظر ردة فعلي.. فرحت أراقبه بصمت وبشيء من الاستغراب.. بالطبع.. مهما حدث ومهما أصرت الأنثى على الطلاق.. ستشعر بشيء من الحزن والذهول حين يحدث فعليا.. رغم أنني عشت تلك المشاعر من قبل حين انفصلت عن زوجي الأول.. يبدو أن فكرة الزواج بأكملها فاشلة بالنسبة لي.. هذه حقيقة أتقبلها الآن بصدر رحب.. خاصة بعد أن عرفت أن هناك ما هو أسوأ من العقم.. أن أرتكب جريمة قتل!!.. فقد عشت شعور القاتل -أو القاتلة على سبيل الدقة اللغوية- وكنت مقتنعة أنني قتلت زوجي قبل أن أكتشف براءتي للتو.. لكن.. يبقى السؤال

الذي تنهي إجابته القضية بأكملها.. ما هو الشيء المدفون في الحديقة؟!.

زوجي يخرج من غرفة النوم وهو يحمل حقيبة صغيرة امتلأت بثيابه.. ثم.. يقف أمامي مباشرة وكأنه يهم بقول شيء ما.. لكنه يتردد.. ويحسم أمره مقررا السكوت.. قبل أن يتجه أخيرا إلى باب الشقة مغمغما:

- آسف على كل شيء!!.

مشهد درامي سخيف.. حتى أنني شعرت للحظة أن علي الالتفات حولي كي أتأكد أنني لست جزءا من مسلسل خليجي يتم تصويره الآن.. لذا لم أكترث لاعتذاره.. لكني أدرك الآن أنه لم يحبني يوما.. فمن يحبك بصدق لن يتخلى عنك.. مهما كانت الظروف!!.. ولا أعرف لماذا استذكرت كلامه قبل الزواج وكيف كان يتوسل إلي.. مع الأسف.. البدايات تخدعني كثيرا.. فدائما أكتشف أن الكلام الصادق يكون في اللحظات الأخيرة.. هكذا يتصرف كل رجل دون استثناء.. سيقسم للفتاة أنها مختلفة.. سيخبرها أنها أجمل نساء الكون.. وأن عطرها المجنون هو الذي يلهمه.. وعندما تصدقه المسكينة.. يتركها

وحيدة.. مشكلة الرجل أنه لا يعرف ما يريده أصلا.. فإن لم يتزوج من يحب.. تصبح حبيبته التي سرقها منه القدر.. وإن تزوجها.. تصبح الزوجة التي حرمته من حياة العزاب الجميلة!!.. على كل حال.. هو لم يكن بالزوج النذل.. ربما كان يجدر به أن يطلقني بدلا من الخيانة.. هذا قد يكون عتابي الوحيد له.

لقد حُسمت الأمور الآن.. سأطوي صفحة هامة من حياتي.. وسأُقبل على بداية جديدة.. هناك أمور كثيرة يجب تغييرها.. يجب أن أعالج مشكلتي مع مرض (المشي أثناء النوم).. وأن أشترك في أحد الأندية الصحية لأمارس الرياضة باستمرار.. كونها أفضل علاج للاكتئاب الذي قد يزورني مرة أخرى لاحقا وينغص علي أيامي القادمة.. أما الشعور بالأمومة.. فربما أستطيع تعويضه من خلال المشاركة بأنشطة متعلقة بالأطفال.. حتى لو قمت بتأسيس حضانة مثلا.. إنها فكرة رائعة.. يبدو أن الأفكار الجيدة تقتحم عقولنا حين نفكر بإيجابية.. من أين أتت تلك الإيجابية؟!.. إنها نشوة معرفتي ببراءتي التي ما تزال تحتويني.

يخرج زوجي من الشقة وهو يحمل حقيبة تحوي كل ثيابه.. ليتركني وحيدة كما كنت وكما سأظل.. حسنا.. هناك أمر واحد

فقط يجب التأكد منه لأطوي صفحة زواجي هذا إلى الأبد.. وإلا فالاحتراق بنيران الفضول إلى الأبد أيضا.. أتحدث مرة أخرى عن الشيء المدفون في الحديقة.. يجب أن أعرف ماهيته.. خاصة وأنني لم أعد أشعر بالرعب الذي شعرت به سابقا.. لذا حسمت أمري وخرجت إلى حديقة البيت الداخلية رغم أن الساعة كانت تتجاوز السابعة والنصف مساء.. لكن إضاءة سور البيت تنير المكان بصورة كافية.. ثم.. أمسكت بالرفش وبدأت بالحفر فعليا.. التوتر بدأ يزحف إلى قلبي رغما عن أنفي.. حتى بت أحفر لحظة.. وأبتعد سريعا لحظة أخرى.. وكأنني أحفر في جحر ثعبان وأخشى أن يخرج منه ليقفز في وجهي فجأة!!.

مهلا.. الرفش يصطدم بشيء مقزز.. أتوقف عن الحفر وأقترب لألقي نظرة جيدة وأنا أزدرد لعابي رعبا.. إنه.. إنه مجرد قط ميت!!!.. هذا رائع.. رائع رغم بشاعة المنظر بالطبع.. على الأقل لم أقتل بشرا.. لماذا يا ترى قتلت هذا القط البائس؟!.. لا أدري.. فلا يمكن تبرير تصرفات الإنسان حين يمشي أثناء النوم.. و.. كنت على وشك أن أتنهد بارتياح وأقوم بردم الحفرة.. إلا أن أنفاسي احتبست مرة أخرى وأنا أتذكر -فجأة- حقيقة بديهية لم أنتبه إليها سوى الآن!!.

فالدماء التي ملأت فراشي كانت أكثر بكثير من أن تخرج من قط.. أفكر بذلك مع ومضات ذهنية سريعة بدأت تدخل ذاكرتي فجأة!!!.. أعرف جيدا أن الذي يمشي أثناء نومه لا يتذكر ما فعله حين يستيقظ.. لكن.. ماذا لو قمنا بتحفيز ذاكرته كما حدث معي للتو؟!.. فما رأيته حفز ذاكرتي كثيرا بالفعل.. وجعلني أتذكر -بتدرّج بطيء جدا- أمورا قد تبدو تافهة للوهلة الأولى.. لكنها تؤدي في النهاية إلى حقيقة مروعة!!!.

أتذكر ما قرأته حين بحثت عبر (الإنترنت) عن مرض (المشي أثناء النوم).. وعن كم المعلومات والتفاصيل التي تمر علينا كل يوم لكن عقلنا الواعي يتجاهلها لعدم أهميتها في حياتنا.. فعلى سبيل المثال.. لو مر أمامنا شخص ما في أحد الأسواق.. لن ينتبه عقلنا الواعي لثيابه أو ملامحه.. بل ستدخل تلك التفاصيل -لا شعوريا ولسبب غير مفهوم علميا- إلى تلك الغرفة المظلمة التي تحدثت عنها سابقا.. والتي نطلق عليها اسم العقل الباطن.. لهذا نحلم بأشياء كثيرة نظن أحيانا أنها غير مترابطة.. لكنها في الواقع نتاج ما يحويه عقلنا الباطن*.. فهو الذي يمسك بزمام الأمور أثناء نومنا كما علمنا جميعا.

---

* حقيقة.

تمر تلك الحقائق في ذهني بلمح البصر وأنا أحدق بذلك القط الميت.. لمحات من هنا وهناك تترتب وتصنع واقعا مرعبا!!!.. أتذكر شقيقتي الصغرى.. لم أتحدث عنها كثيرا لأنني ظننتها بعيدة عن الأحداث.. ولم أذكر لكم أنها انفصلت عن زوجها منذ مدة بعد خلافات كثيرة انتهت بزاوجهما إلى طريق مسدود.. فباتت تعيش في شقة مع طفلها الذي يذهب في أيام محددة من كل أسبوع كي يبيت عند والده.

قدماي لم تعودا تقويان على حملي.. أتذكر الآن -بصورة ضبابية- أنني نهضت من سريري ومشيت أثناء نومي متجهة إلى سيارتي.. ثم ذهبت إلى شقة شقيقتي في وقت متأخر جدا من الليل.. و.. قتلتها هناك!!!.. بل وحملت جثتها إلى حديقتي ودفنتها فيها.. إنها مدفونة تحت هذا القط.. فهو قطها!!.. نعم.. هذا واضح من السلسلة الذهبية التي تحيط بعنقه.. أعتقد أنه ضايقني أثناء ارتكابي للجريمة فقتلته أيضا.. تتساءلون لماذا يقودني عقلي الباطن لأقتل شقيقتي؟!.. ألم تعرفوا السبب حتى الآن؟!.. لأن زوجي كان يخونني مع شقيقتي.. نعم.. زوجي يخونني مع شقيقتي التي ربيتها بنفسي وعشقت الأمومة بسببها!!!.

يبدو أن عقلي الباطن هو الذي اكتشف أمر تلك الخيانة كما أخبرتني بنفسك لاحقا يا دكتور.. فربما رأيت مفتاحا زائدا في سلسلة مفاتيح زوجي ذات مرة مثلا وهو مفتاح شقة شقيقتي.. لكن عقلي الواعي لم ينتبه لتلك المعلومة الصغيرة وقتها.. كما أن الصوت الذي سمعته في تلك المكالمة الهاتفية كان صوت شقيقتي.. إلا أنني لم أنتبه وقتها أيضا.. إذ لم أسمع منها سوى عبارة: ((أهلا حبيبي)) التي أثارت غضبي كثيرا وجعلتني لا أنتبه لهوية المتصلة أصلا.. لكن عقلي الباطن ميز الصوت جيدا.. وهناك رائحة العطر النسائي الذي تستخدمه شقيقتي بكثرة.. لم أربط بينه وبين العطر الذي تسرب إلى أنفي في تلك الليلة السوداء حين كشفت خيانة زوجي.

كما أتذكر أن رقم هاتفها كان مسجلا في ذاكرة هاتف زوجي باسم (بدر)!!!.. وهو قريب جدا من اسم شقيقتي (بدور).. يبدو أنه حفظ رقمها في هاتفه تحت اسم رجل من باب الحذر.. أتذكر الآن أنهما التقيا أكثر من مرة أثناء زيارات شقيقتي لي.. لكنني أجهل كيف ومتى تحولت هذه العلاقة العائلية إلى علاقة عاطفية حقيرة!!!.. ولا يهمني أن أعرف في واقع الأمر.. إنها حقيقة مرعبة وكفى.. كما أتذكر بعض الأمور

الأخرى الآن.. فقد دفعني عقلي الباطن لارتكاب جريمتي في أحد الأيام التي يبيت فيها طفلها والمربية عند والده.. كي أنفرد بشقيقتي في شقتها وأقتص منها دون شهود!!.. لا أعرف إن كان طليقها حاول التواصل معها خلال اليومين الماضيين كي يعود طفلها إليها.. ولا أعرف إن لاحظ إختفاءها وعدم ردها على اتصالاته كونها أصبحت جثة هامدة تقبع في شقتها.. لكن.. هذا آخر ما يهمني الآن.

لا أستطيع أن أتحرك من مكاني.. أشعر بشلل كامل من هول الصدمة.. الدماء نفسها توقفت عن الحركة في جسدي.. شقيقتي التي كنت على استعداد أن أتلقى رصاصة قاتلة من أجلها.. أكتشف أنها هي التي تقف خلف المسدس.. بل وهي التي ضغطت على الزناد وأطلقت الرصاصة علي.. رصاصة وهمية لكنها قتلتني مائة مرة!!!.. يبدو أن الناس لا يتغيرون.. بل تسقط أقنعتهم الزائفة فحسب.. وقد سقطت أقنعة أقرب الناس لي.. فالخيانة لا تأتي إلا من أقرب الناس.. لهذا هي مؤلمة!!.

أعيد مراجعة الأحداث في ذهني مرة أخرى وأخرى.. لقد جمع عقلي الباطن كل الحقائق التي لم ينتبه إليها عقلي الواعي.. ثم قادني من خلال مرض (المشي أثناء النوم) لأقتل شقيقتي التي

كنت أراها دوما كابنتي.. رغم فارق السن القليل نسبيا بيننا.. الآن فقط أفهم سبب تردد زوجي ومماطلته في مسألة الطلاق.. لأن الأمر لم يكن متعلقا بالطلاق فقط.. بل ربما برغبته بالارتباط بشقيقتي بعد ذلك.. فكيف سيخبراني بتلك الحقيقة القاسية؟!!.

يكاد يغمى علي.. لكني أتمالك نفسي بصعوبة شديدة وقد شعرت أن العالم بأكمله مخيف بغيض لا يُحتمل!!.. وأدرك أنه لم يعد هناك أي مفر من الذهاب إلى الشرطة والاعتراف.. ولا أعرف لماذا طرأ في ذهني فجأة ذلك المشهد الشهير المؤلم.. حين يهرب المريض النفسي من المستشفى.. لكنه يعود إليه برغبته بعد أن رأى قسوة العالم في الخارج والظلم الطاغي عليه؟!!.. أتحدث عن المسلسل الكويتي الشهير (على الدنيا السلام)!!.. الفارق أنني سأذهب إلى الشرطة.. وليحدث ما يحدث.. لم أعد أهتم اطلاقا.. فحتى لو سجنت.. سيكون السجن أفضل من هذا العالم القذر.

أمسكت بهاتفي النقال واتصلت بالشرطة لأخبرهم بأمر جريمتي.. ثم أنهيت المكالمة بطريقة آلية منتظرة قدومهم.. أنظر حولي وكأنني أنظر إلى حياتي بأكملها.. كم أتمنى أن أحصل على حياة ثانية.. بعد أن تسربت الأولى من يدي وضاعت أيامها بين أمنيات وخيالات.. ثم صدمة عمر كهذه.

تستطيعون تخيل ما حدث بعد ذلك.. تحقيقات لشهور طويلة سبقها استخراج جثة شقيقتي من الحديقة.. وتخللها أيضا طلاقي ونهاية زواجي الثاني.. حيث أرسل لي زوجي ورقة الطلاق دون أن أراه أو حتى أعرف ردة فعله تجاه جريمتي.. فكنت في أسوأ حال ممكن.. حتى ساعات نومي نفسها كانت سوداء وأنا في السجن.. فالبعض يستيقظ شاعرا بالنعاس.. والبعض الآخر يستيقظ نشيطا.. أما أنا فكنت أستيقظ ميتة كل يوم!!.

كما انتشر الخبر بين أفراد العائلة بالطبع.. وباتوا يتجنبوني كوني أصبحت قاتلة بنظرهم وأمثل لهم الصورة النسائية من (قابيل) الذي قتل شقيقه.. رغم أنني فعلت المستحيل لأشرح موقفي.. بل وأرسلت لهم لاحقا رسائل هاتفية أخبرهم فيها بالعلاقة الحقيرة التي نشأت بين زوجي -سابقا- وشقيقتي.. وشرحت موقفي للجميع وأنا أبكي دما.. إلا أن طليقي ظل ينكر ويكذب كلامي كما عرفت فيما بعد.. وهو أمر معتاد من الرجال الذين أراهم حفنة من الأوغاد.. فسمعتهم تهمهم جدا.. ولا يهمهم الدمار الذي يسببونه لقلب الأنثى التي تفرغ عاطفتها دوما على كائن لا يعرف سوى حاجاته.. عموما.. ما زلت حتى هذه

اللحظة أجهل إن كان أفراد عائلتي قد صدقوا كلامي أم كلامه.. لكنهم ابتعدوا عني في كل الأحوال كما ذكرت.

وقد أنقذتني يا دكتور في نهاية الأمر حين قمت بعملك على أكمل وجه.. إذ أخضعتني لعدة جلسات من العلاج النفسي بمساعدة مجموعة من زملائك الأطباء.. وبأمر من القاضي.. ليتضح لكم أنني مصابة بداء (المشي أثناء النوم) بالفعل.. فكتبت هذا في تقريرك الذي سلمته إلى القضاء.. حيث تأكد القاضي في النهاية أنني لم أكن مسؤولة عن تصرفاتي.. ليأمر بإيداعي مستشفى الطب النفسي لمدة سنة للحصول على التأهيل اللازم.. قبل أن أخرج أخيرا بحالة نفسية وصحية أفضل بكثير جعلت القاضي يفرج عني ويسمح لي بالعودة إلى شقتي.. واسمح لي أن أشكرك للمرة الألف يا دكتور على ما فعلته.. لأنك مختلف عن كل الرجال.. أنت الحالة النادرة.. وليس نحن كما وصفتنا في مذكراتك سابقا*!!.

ولحسن الحظ أيضا لم أعانِ أي صعوبات مادية.. فقد حصلت على تقاعد طبي بمساعدتك أيضا يا دكتور.. حيث أبعدني هذا

* كما ذكرنا في المقدمة.. فإن بطلة قصتنا تتحدث عن سلسلة (حالات نادرة) لنفس المؤلف.. إلا أنها -وكما ذكرنا أيضا- غير مرتبطة اطلاقا بهذا الكتاب.

تماما عن الناس وعن حاجتي لهم.. بل وقمت بإبعاد نفسي أكثر حين غيرت رقم هاتفي.. وكأنني محوت حياتي السابقة بأكملها وبدأت حياة جديدة!!.. لكن.. يبقى هناك تساؤلا مهمّا ما زلت أطرحه على نفسي بين الحين والآخر.. لماذا أتيت بجثة شقيقتي وقمت بدفنها في حديقة البيت؟!.. لماذا لم أتركها في شقتها فحسب؟!.. هل لأن عقلي الباطن أراد حمايتي من الشرطة وإخفاء آثار الجريمة؟!.. لا أعلم.. فلا يمكن فهم طبيعة العقل الباطن.

أما ابن شقيقتي المسكين.. فلم يدرك ما يحدث حوله كونه صغيرا في السن لا يتجاوز عمره العامين.. لكنني قررت ألا أظهر في حياته أبدا رغم كل شيء.. ولا أعلم إن كان والده سيخبره في المستقبل بأمر ارتكابي للجريمة.. ربما يخترع له أي قصة ويخبره أن والدته توفيت بسبب مرض ما مثلا.. لا أعلم.. فهذا ليس ما يشغل بالي الآن.

إنها قصة مظلمة.. وكئيبة جدا.. أعترف بهذا.. لكني لحسن الحظ أملك الفرصة لأبدأ من جديد.. وأحاول أن أتجاهل مسألة الإنجاب التي شغلت عقلي لسنوات.. فالاستغناء عن من تظنه كل حياتك هو في واقع الأمر نضج عاطفي!!.. لذا تجدني أردد

لنفسي باستمرار أنها مجرد صفحة سوداء من حياتي سأحاول طيها إلى الأبد.. وأحاول أن أكون قوية.. لا مجرد فتاة مكتئبة طوال الوقت تنفجر عقدها النفسية حين تكون نائمة.. ويبدو أنني أصبحت أكثر نضجا بالفعل في الآونة الأخيرة.. فالحزن هو الذي يزيدنا نضجا وليس السنوات.. وتأكدوا لو أنني أبدو لكم قوية الآن.. فهذا يعني أنني بكيت كثيرا لوحدي أولا!!.

لقد قمت فيما بعد باستئجار هذه الشقة الصغيرة الأنيقة التي أستضيفكم فيها.. فعشقتها وعشقت وحدتي مع مرور الأيام.. والوحدة لا تعني فقط الابتعاد عن البشر.. بل قد تعني أيضا أن أكون معهم دون أن يصلوا لمشاعري.. لذا فأي إنسان يدخل عالمي.. عليه أن يجعله أفضل مما هو عليه في وحدتي.. وإلا عليه الرحيل!!.. كما أنني مدينة جدا لك يا دكتور لأنك وافقت على طلبي بتأسيس هذا النادي الغامض الجميل (ملاذ)!!.. والأجمل أن تصبح شقتي الصغيرة مقرا رسميا له.. لذا فأنا أرحب بكم جميعا مرة أخرى.. وأشكركم على هذا الدفء الإنساني الذي أعيشه الآن بينكم.. بعيدا عن العالم المخيف في الخارج.. والذي سرت فيه ذات يوم دون وعي لأرتكب جريمتي.. حين كنت مصابة بداء (المشي أثناء النوم).. حين كنت.. هائمة!!.

عُزلة!!

تحكيها: ملاك

العمر: 24 سنة

مساء يوم (الخميس).. الساعة تتجاوز السادسة والنصف بقليل.. الشعور الجميل بالهدوء والاسترخاء كما هو الحال دوما في بداية العطل الأسبوعية.. أتأكد من لمسات الماكياج الأخيرة قبل أن أقول بشيء من الاستغراب:

- ما زلت عاجزة عن فهم صديقك هذا.. كان بإمكانه دعوتنا إلى بيته مثلا.. لماذا يدعونا إلى الشاليه؟!.. فالمسافة بعيدة.. والأجواء باردة جدا كما ترى.. والغيوم تنذر بأمطار غزيرة قد تهطل في أي لحظة!!.

زوجي يلقي نظرة أخيرة على نفسه أمام المرآة وهو يرش العطر على معطفه الثقيل.. ثم يلتفت إلي ليقول مبتسما:

- (فهد) يحب الشاليه كثيرا ويقضي فيه معظم أوقات فراغه مع زوجته.. ثم إنها دعوة واحدة فحسب يا عزيزتي.. وليس هناك ضرر من تلبيتها.. خاصة وأنه صديق عمري كما تعلمين.. وزميل دراسة أيضا.. فقد تخرجنا من الثانوية معا.. ودرسنا نفس التخصص في الجامعة معا.. ومن يدري.. ربما تنشأ الصداقة بينكِ وبين زوجته بعد هذه الدعوة.. إنها متحمسة جدا للقائك كما يقول.

قلت متجاوزة كلامه دون اقتناع:

- ولماذا دعانا نحن فقط؟!.. عادة ما يكون اللقاء في الشاليهات بحضور مجموعة كبيرة من الأقارب أو الأصدقاء.

رد ببساطة:

- (فهد) هادئ الطباع لا يحب الحياة الصاخبة.. كما أن صداقاته محدودة جدا.. ولا أبالغ لو قلت أنني الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يطلق عليه لقب (صديق).. دعكِ من أن الشاليه صغير المساحة رغم أناقته.. ومن دور واحد فقط.. فلا يكفي لدعوة مجموعة كبيرة من الناس.

سكت للحظة.. ثم أكمل مبتسما:

- شاليه هادىء بأجواء دافئة حميمة.. صديق بمنتهى الطيبة لن تختلف عنه زوجته كثيرا كما يصفها بنفسه.. وشواء لذيذ ستملأ رائحته أنوفنا قبل أن يملأ معداتنا.. لا يوجد أجمل من كل هذا يا عزيزتي لقضاء الوقت في عطلة نهاية الأسبوع.

ابتسمت لكلماته على سبيل المجاملة فحسب.. إذ كنت أرغب بشدة بالبقاء في شقتنا والاستمتاع بالدفء وسط الأحوال الجوية السيئة في الخارج.. لكن.. لم أكن أرفض لزوجي طلبا.. فرغم فترة زواجنا القصيرة التي لم تتجاوز عاما واحدا بعد.. إلا أنني عرفته جيدا خلالها.. واكتشفت أنه شاب طيب القلب يعاملني بحب ويقضي معظم أوقات فراغه معي.. كما أنه طموح للغاية.. يعمل باستمرار -دون ملل- وسط عشرات الأوراق والدراسات المتعلقة بتخصصه كمهندس ميكانيكي.. كونه يريد أن يسبق زملاءه في هذا المجال.. فهو يسعى للحصول على بعثه خلال الشهور القليلة القادمة لاستكمال دراسته.. وقد اتفقنا منذ بداية زواجنا على تأجيل موضوع الإنجاب إلى حين حصوله على درجة الماجستير على الأقل.. وهذا ما أحبه كثيرا في زوجي.. التخطيط.. على عكس غالبية الناس في مجتمعنا.. إذ نجد أن حياتهم بأكملها تسير بطريقة عشوائية.. في الزواج.. في الإنجاب.. في الدراسة.. في صرف المال.. في الوظيفة.. وبعد هذا ينتظرون تدخل إلهي لحل مشاكلهم!!.. عموما.. يبدو أن من يملك القدرة المادية والنفسية لتربية الأبناء ينجب دوما أقل بكثير من الذي لا يملك القدرة!!.

خرجنا أخيرا من الشقة وقد انكمشنا في ثيابنا من شدة البرد.. نركب السيارة على عجالة بحثا عن الدفء.. ليقودها زوجي برضا تام.. في حين أجلس بجانبه وأتبادل معه أطراف الحديث حول مواضيع شتى.. المدفأة تعمل بكفاءة تجبرك على الاسترخاء.. خاصة مع تلك الموسيقى الهادئة المنبعثة من الراديو.. أنظر إلى نفسي عبر مرآة هاتفي لأتأكد من أناقتي.. ثم ألتفت إلى زوجي لأسأله باهتمام:

- بالمناسبة.. ما اسم زوجة صديقك؟!.. وهل لديهما أطفال؟!.

رد مبتسما:

- اسمها (رغد).. وبالطبع لم ينجبا حتى الآن.. إذ لم يمض على زواجهما سوى شهور قليلة.. لقد قامت بدعوتك لحفل زفافها.. لكنك لم تتمكني من الحضور بسبب وفاة والدتك -رحمها الله- في تلك الفترة.. هل نسيت؟!.

أومأت برأسي إيجابا.. ثم قلت متجاهلة كلامه:

- أشعر بشيء من الحرج.. أخشى ألا يحدث أي تقارب بيني وبين زوجته على عكس علاقتك القوية بـ (فهد).

رد ضاحكا:

- لست ملزمة بشيء يا عزيزتي.. قد تغدوان صديقتين بعد هذه الأمسية.. أو تذهب كل منكما في حال سبيلها بعد عودتنا إلى البيت.

سكتنا بعدها قليلا.. لتتحول دفة الحديث إلى أمور جانبية.. الموسيقى ما تزال تنبعث بهدوء ونحن نبتعد عن المناطق السكنية.. حركة الشوارع تخف تدريجيا سوى من بعض السيارات التي لا تضع اعتبارا لحدود السرعة.. فتتجاوزنا على عجالة رغم وجود كاميرات المراقبة.. أنظر إلى جانب الطريق الأيمن فأرى عشرات الخيام على مد البصر.. إنه موسم التخييم المفضل رغم أننا في عز موسم اختبارات نصف السنة.

يخفف زوجي سرعته ويأخذ مخرجا ما.. ليستدير بالسيارة إلى الشارع المقابل.. قبل أن ندخل شوارع داخلية مسفلتة لكنها وسط صحراء جرداء تماما.. الظلام يملأ المكان سوى من بعض الإضاءات البعيدة المنبعثة من مزارع وشاليهات متناثرة هنا وهناك.. ونحن نقترب منها تدريجيا.. إلى أن قال أخيرا بفخر وهو يشير بيده إلى مكان ما:

- وصلنا يا عزيزتي دون الحاجة إلى خريطة الموقع التي أرسلها لي (فهد).. فقد كان الوصف كافيا.

التفتّ حيث أشار.. لأرى شاليها صغيرا من طابق واحد.. لكنه أنيق للغاية.. فركن زوجي سيارته إلى جانب سيارة أخرى من طراز (جيب) هي لصديقه دون شك.. ثم.. ترجلنا لنسير على ممر يشق طريقه وسط حديقة مرتبة بعناية تنعكس عليها إضاءة رائعة.. نتجه إلى باب الشاليه وأنا أتدثر بمعطفي جيدا متأبطة ذراع زوجي.. وقبل أن نضرب الجرس.. فتح لنا الباب شاب في عمر زوجي وهو يرحب بنا بحرارة.. ويخبرنا مبتسما أنه سمع صوت محرك السيارة في الخارج.. فهرع ليستقبلنا.. إنها المرة الأولى التي أرى فيها (فهد) هذا.. لا أعرف لماذا شعرت أنه يشبه زوجي إلى حد ما سوى أنه أقصر قليلا.. خاصة وأنه حليق الوجه أيضا.

أنقل بصري سريعا إلى من تقف بجانبه.. فأجد فتاة بمثل عمري ترتدي حجابا أنيقا زادها جمالا.. صافحتني بحرارة وهي تقول مبتسمة بود:

- مرحبا بك يا عزيزتي.. أنا (رغد).

ابتسمت بدوري وعرفتها باسمي.. عبارات المجاملة تتقاذف هنا وهناك حتى تكاد لا تفهم شيئا مما يقال.. ثم.. ذهبنا إلى صالة صغيرة أنيقة تشعرك بالدفء الجسدي والنفسي.. حيث جلسنا على الأرائك أمام المدفأة التي زادت المكان روعة.. حتى لتشعرك بالرغبة في النوم.. (فهد) يبتسم وهو يقول لي بحماس:

- كنت أخشى أن يجد زوجك صعوبة في إقناعك بقطع هذه المسافة والمجيء إلى هنا.. خاصة في تلك الأجواء.. فالواقع أنني لم أجد مكانا أفضل من الشاليه لأدعوكما إليه.. لقد ورثته عن والدي رحمه الله.. وأزوره بين الحين والآخر كي أقضي فيه ليلة أو ليلتين أنجز خلالها أعمالي الخاصة.. أشعر أن عقلي يعمل هنا بصورة أفضل.. فجميع الأفكار العظيمة تولد في العزلة.. آمل أن تولد هنا أيضا فكرة عظيمة يوما ما.

ضحكنا جميعا.. ثم استطرد وهو ينظر إلى (رغد) مبتسما:

- كما آتي إلى هنا مع زوجتي أحيانا.. فنقضي بعض الوقت أثناء الإجازات القصيرة تغييرا للروتين.

أومأت برأسي إيجابا وأنا أمتدح المكان وتصميمه الإبداعي الذي يشعرك بسلام ذاتي لا يوصف.. وأخبرهم بصدق أن المساحة الكبيرة لا تمنح الجمالية.. إنما الذوق.. خاصة مع وجود هذا الأثاث البسيط والأنيق بنفس الوقت.. مع منضدة الطعام الموجودة في الجانب الآخر من غرفة المعيشة.. فيبتسم مضيفانا امتنانا.. ويشعر زوجي بشيء من الفخر لانتقائي كلماتي جيدا.. ثم.. ينشغل تدريجيا بالحديث مع (فهد) حول أمر ما.. أما أنا فسرعان ما انغمست بدوري مع (رغد).. لنتحدث حول مواضيع متفرقة ونحن نحتسي الشاي الذي يعمل كمدفأة داخلية لأجسادنا.. حتى شعرت بعد حوالي ساعة من وصولنا أنني أقضي معها أمسية جميلة بالفعل.. فقد بدت لطيفة المعشر.. اجتماعية للغاية تمنح الطرف الآخر الفرصة الكاملة للتحدث دون مقاطعة.. وتحرص بشكل كبير ألا تكون مملة حين تتحدث.. ولا أنسى رائحة الشواء الزكية التي بدأت تتسلل من الخارج بهدوء لتملأ أنوفنا.. ثم.. تستأذنني (رغد) للذهاب ومتابعة عملية الشواء.. فأصر على الذهاب معها من باب اللياقة.

نذهب إلى المطبخ.. ونمر خلاله إلى الباب الخلفي للشاليه..

لأجد نفسي على أرض أسمنتية تنتهي بدرجات قصيرة تقودك إلى الشاطىء.. حقا البحر رائع.. خاصة في الليل.. وفي فصل الشتاء تحديدا.. إنه يثير خيالاتك ويشعرك بالحزن والفرح معا.. أنظر إلى الخادمة الآسيوية التي تقوم بعملية الشواء.. مستمتعة بدورها بالدفء الذي يخرج من الشواية والذي يحميها من البرودة التي تكاد تجمد ماء البحر نفسه.. (رغد) تذكّرني ألا نقترب من الشواء كي لا تصطبغ رائحته بثيابنا.. ثم تسأل الخادمة إن كانت الأمور تسير على ما يرام.. فتخبرها الأخيرة أن العشاء سيكون جاهزا بعد دقائق.. لنعود إلى غرفة المعيشة كي نبدأ بتجهيز المائدة.. و.. حسنا.. لن أتحدث عن تلك التفاصيل الدقيقة كثيرا.. فهي لا تهم أحدا غيري.. ولن أتحدث عن المشويات اللذيذة التي ملأت معداتنا.. بل سأقفز مباشرة إلى ما تلا ذلك من أحداث رهيبة لا تصدق.. وأرجوكم أن تستمعوا إلي بعقول منفتحة.. وأن تتذكروا أننا لم نجتمع هنا إلا للحديث عن تجاربنا الخارجة عن المألوف والتي لا تحدث عادة لعامة الناس.. فما سأقوله لكم غريب.. غريب للغاية!!.

أين وصلنا؟!.. آه.. نعم.. كنا نجلس باسترخاء بعد وجبة

العشاء.. نحتسي الشاي ونأكل بعض الحلويات الجاهزة.. قبل أن تطلب (رغد) من الخادمة أن تعود إلى البيت برفقة السائق الذي ينتظرها في الخارج.. كونها تنام مبكرا وليست معتادة على السهر.. فخرجت بعد أن قامت بتنظيف المكان بأكمله من بقايا العشاء.. لنبقى وحدنا في الشاليه نستكمل حديثنا.. وقد شعرت بكسل ممتع يجعلني لا أرغب بترك مكاني أبدا.. الساعة تقترب من العاشرة مساء وما زلنا مستمتعين بالأمسية.. ثم.. بروووووووم.. صوت هزيم الرعد!!.. كنت واثقة أن المطر قادم لا محالة.. برووووووم.. مرة أخرى.. وأخرى.. الأمطار تهطل وتزداد حدتها شيئا فشيئا.. إلى أن تتحول إلى شلاّل!!.. هذا متوقع.. وممتع للغاية طالما نجلس في الداخل بالقرب من المدفأة الموجودة وسط غرفة المعيشة.. فيسود المكان حديثا جماعيا عن الأمطار وكونها فأل خير كما نقول دوما في دول الخليج.

صوت الأمطار يصبح مألوفا بعد أكثر من ربع ساعة.. فنعود -لا شعوريا- إلى ما كنا نتحدث عنه.. (رغد) تخبرني عن التغيير المعتاد الذي طرأ على حياتها بعد الزواج كونها تزوجت حديثا كما علمتم.. لأهز رأسي مبتسمة موافقة على ما تقوله..

وأخبرها أن ظروفي لا تختلف كثيرا عن ظروفها كوني تزوجت حديثا أيضا.. ثم.. تظلم الدنيا فجأة حتى لا تكاد ترى شيئا!!!.. شهقة خفيفة عفوية خرجت مني.. و(فهد) يغمغم بشيء من الاعتذار وهو يضيء مصباح هاتفه الذكي:

- غريب.. هذا لم يحدث من قبل.. يبدو أن الأمطار تسببت بعطل في الكهرباء!!.

نهض زوجي ليلقي نظرة عابرة من خلال النافذة الموجودة في الصالة.. ثم قال باهتمام:

- يبدو أنه عطل كهربائي أصاب المنطقة بأكملها.. فحتى إضاءة الشوارع البعيدة انطفأت.. الظلام يسود كل شيء في الخارج!!!.

ما تزال الأمور طبيعية تماما كما ترون.. فانقطاع الكهرباء عموما ليس بالأمر المستغرب.. إنه يحدث في كل مكان في العالم.. خاصة في هذه الأجواء الممطرة.. لكن.. المفاجأة كانت حين طرق أحدهم باب الشاليه بقوة!!!.. طرقات سريعة مستعجلة من تلك التي تصيب الإنسان بالتوتر.. فالتفتنا تجاه الباب وزوجي يسأل (فهد) باستغراب:

- هل دعوت أحدا غيرنا؟!.

لم يجد (فهد) الوقت ليجيب.. إذ اقتحم أحدهم المكان وأغلق الباب خلفه بسرعة.. وكأنه يهرب من شيء ما!!!.. فاتسعت أعيننا على آخرها من هول المفاجأة.. ونهضنا جميعا مفزوعين نحدق بذلك الشاب الذي كان يرتجف بردا ويلهث بشدة.. بل وبدا تائها هشا إلى درجة غريبة.. وربما زاد الأمر سوءا البلل الذي طال شعره ووجهه وثيابه كلها!!!.. حتى باتت المياه تقطر منه وتلوث الأرض.

لحظات قليلة صامتة حاولنا خلالها استيعاب ما حدث.. قبل أن ينتفض (فهد) ويقول بعصبية:

- من أنت؟!.. وبأي حق تقتحم المكان بهذه الصورة؟!.

غريب فعلا حين ترى كل هذا الرعب على ملامح رجل!!.. والأغرب إجابته التي صدمتنا جميعا.. إذ نظر إلينا مذهولا.. ثم قال بضياع:

- لا أعلم.. صدقني لا أعلم لماذا أنا هنا.. لقد نسيت!!!.

بدا كلامه مضحكا سخيفا كما ترون.. وكأنه طفل أراد سرقة

قطعة حلوى فافتعل عذرا تافها لا يقنع الكبار حين كشفوا أمره!!.. ويبدو أن زوجي شعر أن من واجبه كرجل أن يقول شيئا أيضا ليثبت وجوده.. فقال مباشرة وبحدة واضحة دون أن يسمح لـ(فهد) بالرد:

- أي عذر سخيف هذا؟!.. أخبرني من أنت.. وماذا تفعل هنا؟!.. وكيف جرؤت على الدخول هكذا دون استئذان؟!.

رد الشاب بضياع:

- لا أعرف.. لا أعرف.. أرجوك صدقني!!!.

قالها وهو يلتفت حوله ذعرا.. فاستشاط زوجي غضبا.. ووجدها فرصة رائعة لاستعراض قوته أمامي.. إذ أمسك بالشاب من ياقة ثيابه المبللة دون أن يبدي الأخير أي مقاومة تذكر.. بل بدا خائفا للغاية بالفعل.. وراح يقسم أنه لا يتذكر سبب قدومه إلى هنا.. وأنه لم يأتِ بغرض السرقة مثلا أو لأي نوايا سوداء أخرى -إن كان هذا ما نتصوره- وإلا لانتظر أن يخلو الشاليه من الناس!!.. بالطبع.. كلامه يحوي الكثير من المنطق.. فاللصوص لا يقتحمون أي مكان في العالم بهذه

الطريقة الغبية!!!.. خاصة وأن هناك سيارتين في الخارج لا شك أنه رآهما أثناء قدومه إلى هنا.. لكن.. عذره بالنسيان سخيف وغير منطقي أيضا.. فكيف سنحل هذه المعضلة؟!.

ويبدو أن (فهد) اختار الحل الأسهل.. فقد أخرج هاتفه النقال من جيبه وهو يقول بحزم:

- حسنا إذا.. ما دمت ترفض الاعتراف.. ستبقى هنا إلى أن يصل رجال الشرطة.. سيكون عليك حينها أن تفسر لهم كل شيء.. لقد انتهكت حرمة المكان.. هذه جريمة في عرف القانون.

لم يعترض الشاب إطلاقا!!.. بل جلس مستسلما بثيابه المبللة على الأرض وهو ينظر إلينا بضياع.. أما أنا فرحت ألقي نظرة أكثر دقة عليه دون أن ينتبه.. إنه قصير القامة نسبيا.. نحيل إلى حد ما.. له لحية خفيفة مرتّبة.. يبدو لي وكأنه في أواخر العشرينيات من العمر.. ثم.. صرفت النظر عنه واتجهت لأنظر عبر النافذة بشرود فلم أجد سوى الظلام الدامس.. (فهد) ينزل السماعة.. ثم يحدق بشاشة هاتفه قليلا وهو يضغط على بعض الأزرار.. قبل أن يقول بحنق:

- اللعنة.. هناك مشكلة في شبكة الاتصالات.. (الإنترنت) أيضا لا يعمل!!!.

أخرجنا هواتفنا بطريقة تلقائية.. وراح كل منا يعبث قليلا في هاتفه.. لتغمغم (رغد) بصوت متحشرج:

- بالفعل.. هاتفي أيضا لا يعمل!!!.

يرد زوجي مطمئنا:

- ربما هي الأمطار فحسب.. لعلها تسببت بانقطاع التيار الكهربائي وأثّرت بصورة أو بأخرى على شبكة الاتصالات.. عموما نحن لن نبقى هنا الليلة كلها.. نستطيع الخروج الآن وأخذ هذا الشخص إلى المخفر.. إنه مشكلة رجال الشرطة وليس مشكلتنا.. سنكون بخير.

أومأ (فهد) برأسه موافقا وهو يقول:

- سأذهب إلى المطبخ.. قد أجد هناك شيئا نقيد به هذا اللص كي لا يهرب أثناء طريقنا إلى المخفر.

لم يعترض الشاب أبدا على وصفه باللص.. بل بدا ذهنه منشغلا تماما بأمر ما.. الأمطار الغزيرة ما تزال تتساقط بقوة..

فهي تضرب السقف وكأنها ستخترقه في أي لحظة.. حسنا.. لا أعرف لماذا شعرت في تلك اللحظة تحديدا بشيء من القلق.. وأن الأمور لن تكون أبدا بهذه البساطة.. ويبدو أنني كنت محقة!!!.. إذ غاب (فهد) لحظات قليلة جدا.. ثم أطلق صرخة مدوية من المطبخ:

- يا إلهيييي.. مااا هااذاااا!!!!.

لم نجد الوقت لنذهب ونرى ما يجري.. إذ عاد إلينا مسرعا وقد فقد السيطرة على أعصابه.. وبدا على ملامحه رعب حقيقي!!!.. بالطبع انتفضنا جميعا في أماكننا مذعورين ونحن نراه بهذه الصورة.. في حين راحت (رغد) تصرخ به:

- ماذا حدث؟!!.. أخبرنا بالله عليك!!.

قال وهو يلهث:

- توجد.. توجد جثة في المطبخ.. جثة محترقة متفحمة تماما!!!.

خرجت مني شهقة قوية ووضعت يدي على فمي كما نفعل دوما معشر النساء!!.. في حين نهضت (رغد) من مكانها لا

شعوريا وذهبت لتلتصق بزوجها.. أما زوجي فقد كان أكثرنا تماسكا.. إذ قال بذهول:

- ما الذي تقوله؟!.. جثة محترقة في المطبخ؟!.. كيف وصلت إلى هنا؟!.. وكيف لم تصل إلينا رائحتها إن كانت متفحمة كما تقول؟!.

حاول (فهد) أن يلتقط أنفاسه.. ليرد مصدوما:

- لا أعرف.. لا أعرف.. لكن المنظر بشع للغاية.. لم أرَ جثة في حياتي.. فما بالك أن تكون محترقة كليا حتى بات مستحيلا معرفة هوية صاحبها؟!!.

التفت زوجي إلى ذلك الشاب الغريب.. وسأله بقسوة:

- من أنت بالضبط؟!.. المصائب تنهال علينا منذ اقتحامك للشاليه!!.

لم ينتظر (فهد) إجابة الشاب.. بل هجم عليه فجأة وراح يبحث في جيبه عن أي إثبات شخصي له.. الغريب أن الشاب استسلم له وهو يحدق به بخوف.. لكن.. كانت جيوبه خالية تماما.. حتى من المحفظة نفسها.. فدفعه (فهد) بقسوة وهو

يصرخ مفرغا كل توتره:

- أنت لا تحمل أي إثبات شخصي؟!.. من أنت أيها اللعين؟!.. من الذي قتلته وحرقت جثته لتأتي بها إلى المطبخ؟!.. ثم ماذا عن التيار الكهربائي؟!.

رد الشاب بألم وهو يرتجف دون توقف من شدة البرد بسبب ثيابه المبللة:

- أنا نفسي أجهل سبب وجودي هنا.. إنها الحقيقة مهما بلغت غرابتها.. وحتى لو أخذتني إلى الشرطة.. سيكون هذا كلامي أيضا.. أشعر وكأنني فقدت الذاكرة فجأة.. فأنا لا أتذكر حتى اسمي.. ثم إنك تلومني لانقطاع التيار الكهربائي؟!!.. أنظر إلى النافذة.. لا توجد أي إنارة في الخارج.. ولا حتى في الشوارع البعيدة.. الكهرباء منقطعة عن المنطقة كلها.. كيف سأتمكن من صنع كل هذا؟!.. فكر قليلا.. الأمر أكبر مني بكثير.

احتواني زوجي بذراعه كي يشعرني بالأمان.. ثم قال مستغربا:

- أمور غريبة متسارعة لا يصدقها عقل.. جثة احترقت في الخارج.. ثم تسلل بها أحدهم عبر باب الشاليه

الخلفي المؤدي إلى المطبخ.. ليتركها هناك ويرحل .. كيف يحدث كل هذا دون علمنا؟!.. خاصة وأن المطبخ على بعد خطوات قليلة من هنا فحسب.. ثم ماذا عن هذا الشخص الذي اقتحم المكان فجأة.. ليدعي أنه فقد ذاكرته ونسي سبب قدومه إلى هنا؟!.. أنا نفسي أكاد لا أصدق ما يحدث.. فكيف سنقنع رجال الشرطة بهذا الهراء؟!.. أخشى أن يتم جرنا إلى التحقيقات واتهامنا بشيء.. المعذرة.. لكن أرى أن نبقي الأمور على ما هي عليه بعض الوقت لنفهم ما يحدث أولا.. مع الأسف.. لا مفر من التصرف كمتهمين رغم أننا لم نرتكب أي جرم!!.

ردت (رغد) بقلق:

- بصراحة.. لا يبدو لي الأمر من صنع بشر.. أشعر وكأن هناك قوى خارقة تتلاعب بنا لسبب أو لآخر.. أو أننا نتاج تجربة يقوم بها أحدهم وهو يراقبنا من بعيد عبر شاشة رصد!!!.

لا أعرف لماذا طرأت في ذهني تجربة (سجن ستانفورد)

الشهيرة*.. لكن المقارنة خاطئة هنا بكل تأكيد.. فنحن في

* (تجربة سجن ستانفورد) (Stanford Prison Experiment) دراسة نفسية شهيرة تتمثل بـ (محاكاة واقع السجون).. حيث أجريت عام 1971 بتمويل من البحرية الأمريكية وتحت إشراف مجموعة من الباحثين.. على رأسهم الدكتور (فيليب زيمباردو) (Philip Zimbardo) من جامعة (ستانفورد).. وقد أجريت التجربة لأسباب عديدة.. منها فهم طبيعة الصراعات التي تحدث في السجون بين المساجين والحراس.. وفهم أنماط الطاعة والانصياع -أو التمرد- التي يبديها الناس عندما يتعرضون لنظام حكومي ظالم.. ولفهم معالم قوة السلطة التي تساهم عادة بتغيير سلوك الأفراد أكثر من أي شيء موروث في شخصياتهم.. وقد تم اختيار 24 طالبا في المرحلة الجامعية للقيام بتلك التجربة.. مع الوضع بالاعتبار أن يكونوا من بيئة طبيعية متزنة وينتموا لعائلات مستقرة.. وألا يكون لأي منهم سجل إجرامي.. مع الوعد بأجور مغرية بالطبع.. علما بأن تجربة المحاكاة هذه كانت دقيقة جدا.. إذ تم إعداد سجن واقعي إلى درجة كبيرة في قبو جامعة (ستانفورد) نفسها.. ثم قام القائمون على التجربة بتقسيم الطلبة -بواسطة القرعة- إلى مساجين وحراس.. وقاموا بتسليم الحراس لباس الشرطة الرسمي وعصي ونظارات شمسية لتجنب التواصل البصري مع المساجين.. مع العمل بنظام النوبات الدورية.. حيث ستقع إدارة السجن بالكامل على عاتقهم لمدة أسبوعين دون أي توجيهات عليا.. كل ما عليهم التصرف كما يشاؤون وبما يرونه صوابا.. أما المساجين.. فقد تم إخضاعهم لإجراءات اعتقال حقيقية من قبل رجال شرطة حقيقيين تطوعوا لتلك المهمة من أجل منح التجربة واقعية كاملة.. إذ قام رجال الشرطة بتلاوة حقوقهم عليهم كما نشاهد في السينما.. ثم قاموا بتسجيل البيانات الشخصية لكل سجين مع أخذ بصماته.. ليتم بعدها نقل المساجين إلى السجن المعد للاختبار.. مع منحهم ثياب السجن ورقم خاص بكل سجين.. وأخيرا.. قام الباحثون بملء السجن بالكاميرات لمراقبة كل شاردة وواردة.. كي تتم الاستفادة من التجربة لأقصى درجة.. وبعد أن مر اليوم الأول من التجربة بسلام.. اشتعلت المشاكل فجأة في اليوم التالي.. حين قام مجموعة من المساجين بإغلاق باب سجنهم ووضع الأسرّة كحاجز لمنع الحراس من الدخول إليهم.. وذلك بعد أن شعروا بالدونية وبأنهم يمنحون هؤلاء الحراس الوهميين احتراما مبالغا به.. فبدأت الأمور تخرج عن السيطرة بسرعة غريبة.. خاصة مع الممارسات المهينة التي انتهجها بعض الحراس لقمع هذا التمرد.. كإجبار السجناء على تنظيف المراحيض بأيديهم المجردة عقابا على تمردهم.. وإخراج الفرش والوسائد من زنزانة بعض المساجين وأجبارهم على النوم عراة.. بل وأجبروهم أيضا على ارتداء ملابس نسائية للمزيد من الإذلال.. مع حرمان بعضهم من الطعام كوسيلة للعقاب!!.. وكأنهم عاشوا الدور وصدقوا أنهم حراس بالفعل.. الغريب أن بعض الحراس تطوعوا للعمل ساعات إضافية -دون أجر- للقضاء على تمرد المساجين الذي تصاعد بدوره أمام هذا التعسف.. مما يبين لنا كيف أن للسلطة شهوة وبريق يغري أي إنسان.. فتحول هذا السجن الافتراضي بسرعة لا تصدق إلى مكان منفر وغير صحي.. إلى درجة أن غالبية المساجين طلبوا إلغاء التجربة والتنازل عن أجورهم المغرية.. فانصاع لهم الدكتور (زيمباردو) الذي كان يراقب الأحداث مع زملائه من خلال كاميرات المراقبة.. وأنهى تلك التجربة بعد 6 أيام فقط.. علما بأنها -وكما ذكرنا- كان يفترض أن تستمر أسبوعين كاملين.. ويرى الباحثون أن تجربة سجن (ستانفورد) تكشف بوضوح أن الإنسان بطبيعته يعاني من (التنافر المعرفي) (Cognitive Dissonance).. أي أنه يحمل دوما أفكارا ومعتقدات وقيما متناقضة تجعله يتغير وفق الظروف ومتى ما أتيح له ذلك.. وتجدر الإشارة أن تلك التجربة قد ألهمت شركات الإنتاج في السينما.. فقامت بإنتاج أكثر من فيلم عنها.. آخرها الفيلم الذي تم إنتاجه عام 2015 والذي حمل اسم التجربة نفسها.

شاليه.. وقد كانت الأمور طبيعية للغاية قبل أن ينقلب كل شيء رأسا على عقب ونجد أنفسنا أمام ألغاز غير مفهومة.. لذا سكتنا جميعا دون أن يأخذ أحد كلام (رغد) بجدية.. ليغمغم (فهد) فجأة بكلمات غاضبة لم أفهمها وهو يذهب إلى غرفة النوم على ما يبدو.. ثم يعود بعدها بلحظات وهو يحمل بعض الثياب التي ألقاها بوجه الشاب وهو يقول:

- الحمام في هذا الاتجاه.. اذهب لاستبدال ثيابك.. قد تكون واسعة قليلا.. لكنها تفي بالغرض.. فنحن بشر في النهاية.. ولن أقبل أن أراك ترتجف هكذا من شدة البرد.

الشاب يغمغم بكلمات شكر سريعة وهو يذهب إلى الحمام بالفعل.. ثم.. (فهد) ينظر إلينا ويخبرنا مطمئنا أن نافذة الحمام صغيرة ولن تسمح له بالهرب إذا ما فكر بذلك.. زوجي يومئ برأسه متفهما.. ويخبرنا بصوت مرتجف أنه سيذهب ليلقي نظرة على الجثة.. علها تكشف له شيئا ينير لنا الطريق.. فغاب عن الأنظار لحظات قليلة.. قبل أن يعود من المطبخ والوجوم ظاهر على ملامحه.. ليقول باشمئزاز:

- المنظر بشع للغاية.. الجثة محترقة بالكامل حتى بات مستحيلا معرفة هوية صاحبها.. لكني لا أشم أي رائحة تنبعث منها.. هل لأنها احترقت منذ ساعات طويلة؟!.. لا أعلم.. فأنا لست طبيبا.

غمغمت (رغد) باشمئزاز:

- ستنبعث منها الرائحة قريبا دون شك.

لم نجد الوقت لنعقب على كلامها.. إذ عاد الشاب مرتديا الثياب الجافة وقد بدا أفضل حالا.. حيث ظللنا نحدق به بمشاعر متناقضة.. ليقول (فهد) بيأس:

- لا أعتقد أننا سنعثر على أي إجابة مهما طرحنا من تساؤلات.. أرى أن نذهب إلى المخفر وننهي كل شيء دون القلق من شكوك رجال الشرطة.. سيصدقوننا بالتأكيد بوجود هذا المتطفل الذي اقتحم الشاليه فجأة مدعيا فقدان ذاكرته.. خاصة وأنه لا يحمل أي إثباتات شخصية.. علينا فقط أن نكون حذرين حين نخرج من هنا كي لا يهرب ونجد أنفسنا في ورطة حقيقية.. إذ لن يصدق أحد قصتنا حينها.. بل وربما يتم اتهامنا بارتكاب الجريمة.

قالها وهو يذهب إلى المطبخ مرة أخرى ليبحث عن حبل أو أي شيء يصلح لتقييد الشاب على حد قوله.. فقد نسي الأمر برمته في المرة الأولى حين عثر على الجثة.. و.. انفجرت (رغد) باكية فجأة دون سابق إنذار!!!.. فاتجهت ناحيتها لأحتويها بذراعي وأنا أهمس بكلمات الاطمئنان أن هذه الليلة ستنتهي حال خروجنا من هنا.. وأن الأمور ستكون بخير.. قبل أن يعود (فهد) وهو يحمل حبلا قصيرا.. ثم يطلب من الشاب وضع معصميه ملتصقين ببعضهما كي يقوم بتقييدهما.. فامتثل له الشاب بجرأة.. وكأنه واثق من أنه لم يرتكب جرما ويرغب بمعرفة الحقيقة مثلنا!!!.. بل وقال فعليا:

- لقد كانت هناك أكثر من فرصة كي أتغافل الجميع وأنهض من مكاني هاربا من الباب.. لكني لم أفعل.. لأنني بالفعل نسيت سبب مجيئي إلى هنا كما ذكرت مرارا.. أشعر.. أشعر أن ذاكرتي تالفة.. لكني أدرك في أعماقي أنني لا يمكن أن أكون لصا أو قاتلا.. لذا فأنا واثق أن لا علاقة لي بالجثة الموجودة في المطبخ!!.

قال زوجي بحزم متجاهلا كلامه:

- ستجلس في صندوق السيارة إلى أن نصل إلى المخفر.. وإلا سنضعك فيه قسرا.. فهروبك سيكون كارثة.. أنت دليلنا الوحيد الذي قد يقنع الشرطة بقصتنا.

هز (فهد) رأسه موافقا دون أن يلتفت أي منا لكلمات الاعتراض التي صرخ بها الشاب.. و.. أثناء تأهبنا للخروج.. قالت (رغد) فجأة وهي تحدق بالنافذة بشرود قلق:

- الظلام دامس في الخارج إلى درجة لا تصدق.. هذا مستحيل!!!.. فحتى لو كانت الكهرباء مقطوعة عن كوكب الأرض بأكمله.. وحتى لو كانت الغيوم تحجب القمر والنجوم معا.. لا يمكن أن يكون الظلام بهذه الطريقة المخيفة التي تجعلنا نعجز عن رؤية أي شيء!!.

هرعنا جميعا متجهين ناحية النافذة لنلقي نظرة.. فصعقنا مما نراه.. الرؤية معدومة بالفعل.. العالم بأكمله يحمل اللون الأسود.. فلا ترى منه شيئا.. لم ننتبه كثيرا لذلك في بادئ الأمر.. خاصة مع الأحداث المتتالية من اقتحام الشاب المفاجئ للمكان مرورا بتلك الجثة المحترقة في المطبخ.. ثم.. ننظر إلى

بعضنا بارتياب.. ليتحرك (فهد) ويتجه ناحية الباب.. يمسك مقبض الباب بيد مرتجفة.. المقبض يستجيب له بسهولة.. لكن.. الباب عالق تماما.. زوجي يذهب ليساعده دون جدوى.. فراحا يركلان الباب معا بكل قوتهما.. إلى أن توقفا أخيرا وهما يلهثان.. هذا غير معقول.. إنه باب خشبي.. كيف يصمد بهذه الصورة وكأنه مصنوع من الفولاذ؟!.

أهرع تلقائيا بقلق شديد إلى النافذة وأحاول فتحها.. أقوم بضربها بقبضة يدي.. ثم يأتي زوجي ليفعل الشيء ذاته.. لكن دون جدوى أيضا.. وكأنها تحولت بدورها إلى قطعة من الفولاذ الذي يستحيل كسره.. أسلّط -بيد مرتجفة- كشاف هاتفي عبر النافذة علني أتمكن من رؤية ما يحدث في الخارج.. فلا أرى أي شيء سوى الظلام التام!!.

زوجي يقول بعصبية:

- أشعر وكأنني أعيش حلما سأصحو منه في أي لحظة.. فما يحدث هنا غريب بالفعل ولا يخضع لأي تفسير.. كيف يتم سجننا بهذه الطريقة؟!.. من الذي وراء كل هذا؟!!.

رد (فهد) فجأة:

- ماذا لو أن ما يحدث لنا الآن غير حقيقي؟!.. فربما وضع أحدهم شيئا في الطعام الذي أكلناه!!.. عقار للهلوسة مثلا.

زوجي يرد نافيا:

- مستحيل.. لا أعرف الكثير عن آثار عقارات الهلوسة.. لكن أعرف أن تأثيرها يختلف من شخص لآخر حسب تجاربه في الحياة وخيالاته الخاصة.. لا يمكن أن نرى جميعا نفس الأوهام*.

قلت بذهول:

- إذا كيف سنفسر ما نمر به في هذا الشاليه؟!.. المفاجآت تتوالى دون توقف.. وجميعها مستحيلة الحدوث.. لكنها تحدث!!!.

لم يرد أحد على كلامي.. فالصمت بحد ذاته رد.. لأنهم جميعا يحملون نفس التساؤلات.. لذا ظللنا ننظر لبعضنا وملامحنا

* حقيقة.

تنطق بكل مفردات الذهول.. الأمطار في الخارج ما تزال تهطل بغزارة دون توقف.. غريب فعلا أن أكون مولعة بأفلام نهاية العالم.. حيث تختبئ قلة قليلة من البشر في مكان آمن منعزل.. وكل شيء في الخارج يحترق!!.. لكني لا أجد لحظات العزلة التي أعيشها الآن جميلة.. بل موحشة جدا.. إنني -ولأول مرة في حياتي- أنقطع عن العالم كله بهذه الطريقة.. فلا هواتف ولا وسائل تواصل ولا كهرباء.. لماذا لا نشعر بقيمة الأشياء إلا بعد أن نخسرها؟!!.

أطرح كل الاحتمالات في ذهني وأطرحها جانبا بسرعة لعدم منطقيتها.. حرب عالمية ثالثة؟!.. حرب تكنولوجية؟!.. ظاهرة طبيعية؟!.. جميعها احتمالات بعيدة تماما عن الواقع كما ترون.. فهي لا تفسر شيئا مما أعيشه وأراه.. هذا الشاب المجهول الذي اقتحم المكان فجأة وأخبرنا بقصة لا تصدق.. والجثة المتفحمة في المطبخ.. والآن عزلتنا الكاملة عن العالم بأكمله.. مجموعة ألغاز لا أعرف إن كان هناك ما يربطها ببعضها أصلا!!.


t.me/t_pdf

(رغد) تنظر إلى شاشة هاتفها.. ثم تقول فجأة:

- ساعتي.. أتذكر أنها كانت تتجاوز العاشرة بقليل قبل انقطاع التيار الكهربائي .. لكنها توقفت عن العمل منذ ذلك الحين!!!.

نظر كل منا إلى شاشة هاتفه.. في حين ألقى زوجي نظرة على عقارب الساعة في معصمه.. جميعنا نجد الأمر ذاته.. وكأن الزمن بأكمله توقف.. حينها قال (فهد) بسرعة وكأنه تذكر شيئا بالغ الأهمية:

- لقد نسينا الباب الخلفي.. ربما يكون سبيل خروجنا.

قالها وهو يتجه بخطوات سريعة ناحية المطبخ.. ثم.. نسمع صوت محاولاته وهو يركل الباب بقوة بلا جدوى.. ليتجه نحو النافذة وهو يضربها بشيء ما.. لكنه يعود لاهثا بعد كل هذا وهو يقول:

- نحن مسجونون هنا بطريقة أجهلها.. فحتى نافذة المطبخ بدت مستحيلة الكسر .. هل لأحد أن يفسر لي ما يحدث؟!.. كل الأحداث الغريبة بدأت حين اقتحم هذا اللعين الشاليه وأخبرنا بقصته السخيفة!!.

قالها وهو يشير للشاب المقيد الذي انكمش أكثر في مكانه وهو يردد بانهيار:

- ما زلتم تكيلون لي الاتهامات؟!.. وهل تبدو لكم تلك الأحداث من صنع بشر؟!.. كيف سأجد الوقت لاستبدال زجاج النوافذ بزجاج سميك يحتمل ضرباتكم؟!.. وكيف سأمنعكم من كسر الباب؟!.. يجب أن تعترف.. هناك قوة خارجية نجهلها تصنع كل هذا!!.

قطعت (رغد) هذا الجدال لتقول وهي على وشك الانهيار:

- إلى متى سنبقى هنا؟!.. إلى متى؟!.. لم أعد أطيق البقاء في هذا الشاليه اللعين.. أقسم أن قدمي لن تطأه مرة أخرى لو قدر لنا الخروج!!.

اتجه إليها (فهد) محاولا تهدئتها وهو يغمغم محذرا:

- يجب أن نقتصد باستخدام بطاريات هواتفنا.. لا تستخدموا الإضاءة الموجودة فيها.. سنكتفي بإضاءة هاتفي حاليا.. فلا ندري إلى متى سنظل هنا.

ثم جلس قرب زوجته.. ليكمل:

- والآن.. لنفكر جيدا بكل ما حدث.. فلا يمكن لشخص واحد أن يتسبب بعطل التيار الكهربائي بالمنطقة كلها.. ثم يقوم بعدها بتهريب جثة إلى داخل الشاليه دون أن نشعر.. ليأتي بعد كل هذا ويعزلنا تماما عن العالم الخارجي حتى نعجز عن كسر الأبواب والنوافذ.. ثم ماذا عن الظلام الدامس الذي نراه في الخارج؟!.. لقد أمعنت النظر عبر نافذة المطبخ.. حتى البحر لم أعد أراه.. وكأن الشاليه بأكمله يطير بهدوء في غياهب الكون!!.. أعتقد أننا ضحية خدعة ذكية يمارسها مجموعة من الناس لهدف ما.. وهذا الشاب ليس سوى فرد في تلك المجموعة.. نعم.. أو ربما.....

سكت دون أن يكمل.. وكأنه يبحث عن احتمالات أخرى.. لأفجر مفاجأة هائلة وأكمل جملته بما جال في خاطري للتو:

- وربما تكون أنت خلف كل ما يحدث يا سيد (فهد)!!.

لم يتوقع أحد إطلاقا أن ألقي بقنبلة كهذه.. ويبدو أنه لم يتوقع أيضا تلك الجرأة مني.. إذ نظر إلي غاضبا ليقول:

- ما هذا الهراء؟!!.

ثم نقل بصره سريعا لزوجي وهو يكمل بحنق:

- المعذرة يا صديقي.. لا أسمح لزوجتك بإهانتي في عقر داري!!.

زوجي يتجاهل الرد.. ثم يقترب مني وهو يقول هامسا بحرج:

- (ملاك).. عزيزتي.. أنت مخطئة.. (فهد) صديق عمري ولا يمكن أن يعبث بنا بهذه الطريقة.. ثم إننا ضيوف عنده.. كلامك غير لائق أبدا.

أنظر إلى (رغد) مستنجدة.. فأجدها تنظر إلي بجمود.. ثم تلتفت فجأة ناحية زوجي وتقول:

- وربما كنت أنت أيضا شريكا في ما يحدث!!.

نعم.. هذا ما وددت قوله أيضا بكل صراحة!!.. وقبل أن يستنكر أي من الزوجين تلك الاتهامات.. نهضت من مكاني وأكملت بحدة:

- إنني أسترجع كل ما عشته اليوم.. بصراحة لم أقتنع أبدا بفكرة تواجد 4 أشخاص فقط في شاليه بمنطقة بعيدة.. فعادة ما تحوي الشاليهات تجمعات أكبر بكثير.. خاصة

في فترات الإجازات.. دعكم من الأجواء الممطرة والبرد الشديد.. فهذا بحد ذاته كفيل بإلغاء الأمسية بأكملها.. وهذا ما قلته لك يا زوجي العزيز قبل مجيئنا إلى هنا.. ثم ماذا عن تلك الجثة المزعومة التي لم يرها سواك أنت و(فهد)؟!.. أعتقد أنكما اعتمدتما على الناحية النفسية حين قلتما أن الجثة محترقة متفحمة.. عالمين أنني و(رغد) سنتجنبها ولن نجرؤ على الذهاب لإلقاء نظرة عليها!!.. إنكما تفعلان كل هذا لدافع ما.. دافع نجهله.. حتى هذا الشاب.. ما أدرانا أنكما لا تعرفانه؟!.

كان كلامي صادما.. إلى درجة أن (رغد) شعرت أنني أملك حجة قوية.. فاقتربت لتجلس بجانبي وهي تنظر إليهما بتحد منتظرة منهما الإجابة.. ليقول (فهد) ببرود:

- تستطيعين الذهاب إلى المطبخ للتأكد إن كانت هناك جثة أم لا.

لم أرد على كلامه.. بل عضضت على شفتي بحنق خوفا أن يكون اتهامي غبيا بالفعل.. حينها غمغم زوجي بهدوء:

- عزيزتي.. لا ألومك على تلك الاتهامات في ظل الخوف والأجواء الغريبة التي نعيشها.. لكن تحليلك غير دقيق إطلاقا.. فكيف سنعجز عن فتح الأبواب؟!.. لقد رأيت بنفسك محاولاتنا المستميتة لكسرها.. ولا تنسي أيضا الظلام الداكن الغريب في الخارج والذي جعل الرؤية معدومة تماما!!.. فهل هو من صنعنا أيضا؟!.

قلت بعصبية:

- ربما استغليتم انشغالنا بالحديث وتناول العشاء.. ليأتي هذا الشاب ويضع ورق تجليد أسود اللون مثلا على النوافذ.. كي يبدو لنا العالم داكنا كما نراه الآن من النافذة.. ثم يقتحم الشاليه ويختلق قصة فقدانه للذاكرة.. أما بخصوص عدم استجابة الباب أو النوافذ لمحاولات الكسر فلا أعلم بصراحة.. لكني واثقة أن هناك خدعة ما!!.

سألني (فهد) بهدوء:

- وما مصلحتنا من كل هذا؟!.

قلت بتحد:

- ربما لقتلنا أو دفعنا للانتحار!!.

رد زوجي بذهول:

- ولماذا أتخلص منك؟!.. لا يوجد سبب واحد في العالم يجعلني أقتلك.. الطلاق أسهل الحلول لو أردت إنهاء زواجنا.. وبعيدا عن كل هذا.. لا تنسي أننا نعيش حياة زوجية سعيدة.. فأنا......

قطع حديثه فجأة!!.. وكأنه تذكر حقيقة مخيفة.. إذ أغمض عينيه كناية عن التفكير العميق.. ليفجر قنبلة جديدة حين سألني بذهول:

- هذا لا يعقل.. لا يعقل أبدا.. عزيزتي.. أريدك أن تخبريني.. ما الذي تتذكرينه عن حياتنا الزوجية.. أو حتى حياتك الخاصة؟!.

نظرت إليه باستنكار.. ثم قلت بعصبية:

- ما هذا الهراء؟!!!.. ما هذا السؤال الغريب؟!.. هل سيتحول الأمر إلى اتهامي بالجنون الآن؟!.. إنني.....

انعقد لساني فجأة.. وشهقت لا شعوريا!!.. زوجي ينظر إلي بانتصار يشوبه الذهول بمزيج غريب.. نعم.. لقد انتبهت للتو أنني أجهل أمورا كثيرة عن حياتي بالفعل.. أنا لا أذكر حتى أسماء أفراد عائلتي -إن كانت لي عائلة أصلا- ولا أذكر مكان سكني مع زوجي.. لا توجد أي صورة في ذاكرتي لمكان سكننا!!!.. إنني أمر بفقدان ذاكرة غير منطقي.. هذا لا يصدق.. أشعر أنني أمام جدار هائل من الغموض.. فنهضت وأنا أقول للجميع بذعر:

- يا إلهي.. ما الذي يحدث هنا بالضبط؟!.. لقد نسيت أمورا كثيرا بديهية متعلقة بحياتي الخاصة.. أنا لا أتذكر شيئا!!.

(رغد) تضع يدها على فمها كناية عن الصدمة.. إنها تعاني نفس المشكلة كما يبدو.. (فهد) يقول بقلق شديد:

- نعم.. أنا أيضا انتبهت لذلك للتو أثناء حديثكما.. فأنا لا أتذكر حتى وجه أمي أو أبي.. بل ولا أعلم إن كانا على قيد الحياة أصلا!!.. هناك فراغ في رأسي.. وكأنه نزف معظم الذكريات التي يحويها منذ ولادتي.

قال الشاب بحدة:

- ربما تصدقوني الآن حين أخبرتكم أنني فقدت ذاكرتي وأجهل حتى اسمي.

رمقه زوجي بنظرة جانبية.. ثم شبك أصابعه ببعضها ووضعها قرب وجهه.. ليقول مفكرا:

- دعونا نراجع الأحداث معا.. توجد أجزاء مهمة مفقودة من ذاكرتنا كما هو واضح.. ونحن منعزلين عن العالم عاجزين عن الخروج من الشاليه.. حتى صوت الأمطار في الخارج توقف إن كنتم لم تلاحظوا.. كما أن جميع وسائل الاتصال مقطوعة.. وهناك أيضا جثة متفحمة في المطبخ.. والساعات كلها معطلة.. فلا نعرف كم مضى على وجودنا في الشاليه.. كيف يحدث كل هذا؟!.. لدي تفسير غريب جدا.. لكنه يشرح ما يحدث إلى حد كبير!!!.

التفتنا إليه متسائلين عن معنى كلامه.. فأردف بغموض وهو يشير إلى كتاب سميك وضع على رف مكتبة صغيرة في ركن غرفة المعيشة:

- هذه الموسوعة العلمية.. إنني أمتلك نسخة منها.. لقد أوحت لي باستنتاج قد يبدو مضحكا للوهلة الأولى.. لكنه ربما يفسر ما نمر به الآن من أحداث غريبة.. حسنا.. أنتم تعلمون أن جميع الكائنات الحية تعيش اللحظة.. تعيش (الآن).. فحتى لو فكرنا بالماضي والمستقبل طوال الوقت.. إلا أن لا وجود لهما في واقع الأمر.. فالماضي انتهى والمستقبل لم يأتِ بعد.. (الآن) هو كل شيء.. لكنه -رغم ذلك- مرتبط أيضا بدورة زمنية واحدة.. مرتبط بالماضي والمستقبل.. فهو جزء منهما.. حسنا.. ما أريد قوله أننا ربما انفصلنا عن (الزمكان) لسبب غير واضح.. وبتنا نعيش في منطقة غامضة لا تحوي ماضيا أو مستقبلا.. بل تحوي (الآن) فقط!!.

سألت زوجي دون فهم:

- ما المقصود بمصطلح (الزمكان) هذا؟!.

رد وهو يشير إلي بإصبعه:

- (الزمكان) عبارة عن دمج مفهومي الزمان والمكان معا كما هو واضح من الاسم.. إنه بمثابة الوعاء الذي يحوي

كل شيء في هذا الكون من مجرات ونجوم وكواكب وكائنات حية مهما بلغ حجمها.. باختصار.. (الزمكان) يتكون من الأبعاد المكانية الثلاثة (الطول والعرض والارتفاع).. بالإضافة إلى الزمن كبعد رابع*.

قال (فهد) دون اقتناع:

- لا يوجد شيء في العالم يستطيع إخراج البشر من نطاق (الزمكان).. وإلا لما كان لنا وجود في هذه اللحظة أصلا.. فأين نحن الآن إذا؟!.. ثم ماذا عن الشاليه نفسه؟!.. هل خرج أيضا من حدود (الزمكان)؟!.. وماذا عن الأمطار التي كنا نسمع صوتها طوال الوقت ولم تتوقف سوى منذ قليل؟!.. إننا نسمع جيدا ما يدور في الخارج.. لكننا منعزلون هنا لسبب غير مفهوم.. المعذرة يا صديقي.. لا أظن أن كلامك واقعيا على الإطلاق.

رد زوجي بصوت مرتجف:

- لا توجد تفسيرات كثيرة متاحة.. إما أننا نعيش وهما جماعيا لا أفهم سببه.. وهذا أمر مستبعد.. كون الوهم

* حقيقة بالطبع.

تجربة ذاتية كما ذكرت سابقا ولا يمكن أن نعيشه كلنا بهذا التشابه.. أو أن كل ما يحدث حولنا حقيقي يتطلب تفسيرا ما.. لهذا أتيت بفكرة انفصالنا عن (الزمكان).. أعلم أن التفسير غريب لا يجيب على كل التساؤلات.. إلا أنه منطقي جدا قياسا لما نعيشه.. عموما.. السؤال المخيف الذي يجب أن نعثر له على إجابة.. إلى متى سنظل مسجونين هنا؟!.

لم يعلق (فهد) على كلام زوجي.. بل وجدته ينظر إلى السقف بشرود.. ليقول فجأة وكأنه تذكر أمرا مهمّا:

- ماذا عن العليّة؟!.. الغرفة الموجودة بين السطح والسقف الذي ترونه فوقنا.. هذه الغرفة تمتد على سقف الشاليه بأكمله.. يفترض أنها تحوي سخان المياه و.. و.. المعذرة.. لست متأكدا مما تحويه بعد أن فقدت الكثير من ذاكرتي كما تعلمون.. ربما نستطيع الخروج من خلال العليّة.. قد توجد هناك نافذة تؤدي إلى العالم الخارجي.

نظرنا إليه جميعا بأمل.. ثم قررنا التوجه معا إلى المطبخ حيث باب العليّة الموجود في السقف بطبيعة الحال.. عالمة أن رؤيتي لجثة متفحمة هناك لن يكون أكثر سوءا من بقائنا في الشاليه إلى أجل غير مسمى.. فنهضنا.. وبدأ (فهد) يفك وثاق الشاب بصمت.. يبدو أنه اقتنع أنه ضحية مثلنا.. وراح يتقدمنا بعدها بخطوات متوترة تجاه المطبخ.. لكنه توقف فجأة حال وصولنا عند عتبة باب المطبخ.. ليفجر مفاجأة جديدة حين قال بعصبية:

- ماذا يحدث هنا بحق السماء؟!.. أين اختفت الجثة؟!!.

كان هذا آخر ما توقعته!!.. فأصبنا جميعا بحالة ذهول جعلتنا نعجز تماما عن الكلام.. ثم تداركت نفسي وقلت بحدة:

- كنتما تضحكان علينا إذا.. فهذه الجثة المزعومة لم يرها سواكما!!.. يبدو أن استنتاجي صحيح.. أنتما تديران لعبة ما.. بعيدا عن هراء (الزمكان) هذا ومحاولة زوجي لتعقيد الأمور أكثر!!.

لم يتمكن زوجي من الرد.. إذ راح ينظر إلي بِحيرة بدت لي مصطنعة.. أما (فهد).. فقال بصدق:

- لا.. لا.. كانت الجثة ملقاة هنا طوال الوقت.. صدقيني.. لا يوجد أي سبب للكذب عليكما!!.

الشاب يقاطعنا ويقول بنفاد صبر:

- لا يهم الآن.. علينا الخروج من هنا أولا.. ومن ثم تستطيعون تبادل الاتهامات كما تشاؤون.. لنفتح باب العليّة.

نظراتي الحادة والثاقبة تلتهم زوجي و(فهد).. إنني على يقين أنهما كانا يكذبان علينا طوال الوقت لسبب ما.. (رغد) ترمقهما بشك أيضا لكنها تلتزم الصمت.. وكأنها تريد الخروج من هنا أولا.. على أن تفكر بما يجب فعله مع زوجها لاحقا.. لا ألومها على ذلك بالطبع.. و.. أمام هذا الجو المشحون.. تحرك (فهد) فجأة ليأتي بكرسي ويضعه تحت باب العليّة.. زوجي يسأله:

- ألا يوجد سلم؟!.

يغمغم (فهد) باعتذار:

- السلم أتركه عادة خارج الشاليه في مخزن صغير.. هذا

الكرسي هو أعلى ما لدينا هنا لنصل إلى باب العليّة.

قالها وهو يصعد على الكرسي محاولا الوصول إلى السقف حيث باب العليّة.. لكنه عجز تماما لقصر قامته.. فطلب منه زوجي النزول على أن يصعد هو كونه أطولنا.. فامتثل (فهد) دون اعتراض.. ليقف زوجي على الكرسي بالفعل وهو يطلب منا تسليط كشافات هواتفنا على القفل.. و.. بدأ يعبث في القفل.. ثم يدفع الباب الذي استجاب له بسهولة.. فتنهدت بشيء من الارتياح.. لكن.. (فهد) يقول مشككا:

- لم ينته الأمر.. آمل أن يجد زوجك نافذة تؤدي إلى الخارج... لأنني لا أتذكر ما يوجد في العليّة أصلا كما تعلمين.. يا إلهي.. لو عجزنا عن الخروج.. سيكون الحل الأخير أن نملأ الدنيا صراخا.. عل أحدهم في الخارج يسمعنا ويساعدنا.

نتجاهل كلامه ونحن ننظر إلى زوجي الذي يحاول التعلق بحافة العليّة.. ثم يصعد بشيء من السهولة إلى داخلها.. ليختفي عن أنظارنا.. (فهد) يسأله بصوت مرتفع:

- هل أنت بخير؟!.. تحدث إلينا أرجوك.

نسمع صوت زوجي وهو يرد بغموض غريب:

- ما هذا؟!.. انتظروا قليلا!!.

صمَتْنا جميعا ونحن ننتظر منه توضيحا.. لكنه لم يتحدث.. بل راح يعبث بشيء ما لا نعرف ماهيته.. وقبل أن نسأله عما يراه أو يفعله بالضبط.. انفتحت أبواب الجحيم!!.. فما حدث كان انفجارا حقيقيا بمعنى الكلمة!!.. النيران اشتعلت في العليّة دون أن أفهم السبب.. زوجي يحترق ويصرخ بجنون!!!.. يحدث كل هذا في غضون لحظات قليلة أصابتنا بشلل كامل.. قبل أن نتدارك الأمر.. ونبدأ بالصراخ الهستيري.. أما (فهد).. فهرع إلى جردل في ركن المطبخ.. وحاول أن يملأه بالماء وهو ينادي زوجي بلوعة.. لكنه تجمد في مكانه مرة أخرى حين سقطت كتلة من النار من فتحة العليّة.. لا.. إنه.. إنه زوجي وقد اشتعل جسده بأكمله.. حتى باتت النيران تخرج من كل ذرة منه وهو يصرخ دون توقف!!!.

أصدقكم القول أنه أكثر منظر رأيته في حياتي بشاعة.. منظر مرعب بحق.. إلى درجة أنه لم تخرج مني أي ردة فعل.. فالصدمة ألجمتني!!!.. (فهد) يحاول مع الشاب بيأس أن

يخمدا النيران التي تحيط بزوجي.. و(رغد) تصرخ برعب دون توقف.. أما أنا.. فما زلت أنظر إلى المشهد بأكمله بجسد متيبس تماما.. و.. مع كل أسف.. لم تخمد النيران إلا حين همدت حركة زوجي أيضا.. لتفوح منه رائحة الشياط الكريهة .. مشهد مخيف مقزز بكل المقاييس.. لكنا لم نجد الوقت لنتفاعل معه عاطفيا.. فالحريق ما يزال مستمرا في العليّة.. وبدا وكأنه سيمتد إلى داخل الشاليه ليلتهمنا أيضا.. لذا راح (فهد) مع الشاب يدفعاننا دفعا كي نخرج جميعا من المطبخ.. ليقوما بإغلاق الباب بعد ذلك ويعزلانا عن الحريق.. دون أن أعرف أصلا إن كان هذا سينقذنا.. فالعليّة تمتد على سقف الشاليه بأكمله كما علمنا.

الغريب أن (فهد) استمر بدفعنا دفعا للخروج من الشاليه بأكمله رغم أن المخارج كلها مغلقة بطريقة غامضة كما علمتم.. لكن.. انتبهت أثناء توجهنا إلى باب الشاليه أن الظلام لم يعد داكنا كما كان منذ بداية تلك الأحداث الرهيبة وإلى لحظات قليلة سابقة.. فالتفت تلقائيا ناحية النافذة وأنا لم أجد الوقت بعد كي أصرخ وأبكي على ما أصاب زوجي.. لأرى العالم في الخارج كما كان قبل انقطاع التيار الكهربائي!!.. بل

وبتنا نرى الإضاءة التي تقتحم النافذة من الشارع البعيد والشاليهات القريبة نسبيا.. (فهد) ما يزال يدفعنا دفعا إلى الخارج.. ويفتح باب الشاليه الخارجي الذي استجاب له بكل بساطة هذه المرة دون أن أفهم السبب!!!.. هذا لا يصدق.. كل شيء عاد طبيعيا فجأة.. سوى زوجي الذي احترق حتى الموت.

وأخيرا.. نقف نحن الأربعة خارج الشاليه.. نتأمل الأدخنة تخرج منه ونلهث دون توقف.. الأمطار تتساقط علينا بدرجة أقل بكثير عما كانت عليه.. لكننا لم نكترث في كل الأحوال.. بل ظللنا واقفين نحاول استيعاب الموقف.. (فهد) مع ذلك الشاب يبكيان فجأة بصوت مسموع!!!.. وكأنني كنت أنتظر هذه اللحظة كي تنفجر مشاعري التي حبستها طوال فترة سجننا الغريب هذا.. مرورا بكارثة احتراق زوجي أمامي حتى الموت.. إذ صرخت باسمه بكل قوتي أكثر من مرة.. وبدا أنني لن أتوقف عن الصراخ إلى أن تنقطع حبالي الصوتية.. في حين احتضنتني (رغد) وهي تبكي بحرقة بدورها.. كنا مثالا مجسدا للهستيريا النسائية المعروفة!!.

(فهد) يتمالك نفسه قليلا.. ويخرج هاتفه النقال ليطلب الشرطة والمطافئ.. يتحدث إلى الطرف الآخر بكلمات سريعة عن حريق أصاب الشاليه وما زال يلتهم بعض أجزائه.. وأن صديقه (زوجي) احترق حتى الموت قبل أن نتمكن من إنقاذ أنفسنا ونخرج.. ثم يبلغهم بالعنوان ويرجوهم الحضور سريعا.. لقد نجوت كما يبدو.. لكني نجوت كأرملة.. ما تزال (رغد) تحتضنني وتهدىء من روعي وأنا أبكي وأنظر إلى الفراغ.. لألمح وجود سيارة ثالثة تقف على بعد مسافة قريبة نسبيا عن الشاليه.. هل هي سيارة ذلك الشاب؟!.. هذا ما يبدو.. ما زلت عاجزة عن فهم ما حدث.. ولن يهمني أن أفهم.. فقد بدا الحزن وكأنه معول يهدم قلبي بإصرار حتى يكاد يفتته إلى قطع متناثرة!!.

كانت ليلة سوداء بحق.. سيارات الشرطة تحيط بنا.. رجال الإطفاء يبذلون جهدا كبيرا للسيطرة على الحريق.. وسيارة الإسعاف تأتي بعد هذا لتأخذ جثمان زوجي وسط صراخي وبكائي.. الأمطار تتساقط برذاذ بسيط زاد من برودة الجو.. ولا ننسى خروج بعض الأهالي من الشاليهات البعيدة حين لاحظوا أن هناك شيئا ليس على ما يرام يحدث في هذا المكان..

و.. بعد ساعتين أو ربما أكثر.. ذهبنا إلى المخفر للتحقيق فيما حدث.

كنت أظن أن (فهد) سيكتفي بقول الحقيقة لرجال الشرطة -مهما بدت غرابتها- ثم يرمي بعدها المسؤولية بالكامل على ذلك الشاب الغامض الذي بدأت أحداث القصة بحضوره.. لكني فوجئت حين أخفى عنهم كل شيء.. وذكر لهم بالمقابل أن الشاب المجهول هو صديقه في واقع الأمر.. واسمه (يعقوب).. حيث كان أحد المدعوين في تلك الأمسية!!!.. نعم.. بل وتمادى (فهد) أكثر.. حين أخبرهم أنه يمتلك مولدا للكهرباء وضعه في العليّة.. وقد كان يرغب ببيعه.. فأخبره زوجي أنه يرغب بشرائه.. وهذا ما جعله يصعد ليتفحصه ويحاول تشغيله للتأكد من جودته!!!.. لكن.. حدث مس كهربائي مفاجئ على ما يبدو وتسبب بهذ الكارثة.

كنا -(رغد) وأنا- نسمع هذا الكلام ونحن في حالة صدمة.. لكنا لم نملك سوى الإقرار أن ما قاله (فهد) صحيح تماما.. فهي لا تريد أن تناقض أقوال زوجها.. وتفتح مجالا لشكوك رجال الشرطة حول حادثة وفاة غامضة جاءت بعد أحداث غريبة جدا غير مفهومة حتى الآن.. أما أنا.. فلم أكن بحالة نفسية

تسمح بخوض تحقيق كهذا أصلا.. أو حتى التساؤل عن حقيقة ما عشناه في الساعات الماضية.. خاصة حين شعرت أن الأمور عادت إلى طبيعتها.. وأنني استرجعت ذاكرتي كاملة.. الخسارة الوحيدة هي زوجي الحبيب رحمه الله.. ويا لها من خسارة.

خرجنا أخيرا من المخفر.. فكل شيء كان يوحي لرجال الشرطة أن الأمر لا يتعدى حادثا حزينا حصل لأسرتين صغيرتين مع أحد الأصدقاء أثناء تجمعهم البريء في الشاليه.. ثم ركبنا جميعا في سيارة (فهد).. حيث راح يقودها ليأخذني إلى شقتي وهو يعدني أنه سيأتي إلي بسيارة زوجي لاحقا.. الشاب -أو (يعقوب) بعد أن عرفنا اسمه- يجلس على المقعد الأمامي.. في حين أجلس بجانب (رغد) في المقعد الخلفي.. وأنظر إلى الشوارع الهادئة في مثل هذا الوقت المبكر من صباح يوم (الجمعة).. الساعة تتجاوز السابعة صباحا بقليل.. لكن الغيوم ما تزال تحجب الشمس.. والشوارع مبللة بسبب الأمطار التي ظلت تهطل على فترات متقطعة منذ خروجنا من الشاليه.

كنا قد هدأنا قليلا بعد كل هذا الوقت.. إلا أن قلبي ما زال ينبض ألما.. وذهني ظل منشغلا بكيفية إبلاغ عائلتي وعائلة زوجي بما حدث.. حتى أنني لم أفكر إطلاقا بطرح أي سؤال

يتعلق بكم الألغاز التي عشناها في الساعات الماضية.. فهذا آخر ما يهمني الآن.. لكن.. قطع (فهد) حبل الصمت فجأة.. ليقول بحزن شديد:

- (رغد) .. (ملاك).. أرجوكما أن تستمعا إلي جيدا.. فأنتما تملكان كل الحق بمعرفة حقيقة ما حدث في هذه الليلة المشؤومة.. المعذرة.. فما سأخبركما به غريبا للغاية ولا يمكن أن يصدق للوهلة الأولى.. لكنكما رأيتما كل شيء بأنفسكما.. لذا لن يكون إقناعكما بالأمر العسير.. حسنا.. أنا السبب في كل شيء.. أنا و(يعقوب).. وزوجك يا (ملاك).. نحن الثلاثة نتحمل المسؤولية كاملة!!!.

التفت (يعقوب) ناحيتنا ليقول بألم:

- كان يفترض أن تكون ليلة عمر.. لكن النتيجة جاءت كارثية مع الأسف.

نظرت إليهما بحزن شديد دون فهم.. في حين غمغمت (رغد) بخفوت:

- عم تتحدثان؟!.

رد (فهد) وهو يخفف من سرعة السيارة بسبب الأمطار التي ملأت بعض أجزاء الشارع:

- أرجوكما منحي الفرصة كاملة للتحدث.. حتى لو شعرتما أن ما أقوله لا علاقة له بما مررنا به في الساعات الماضية.. يا إلهي.. سيبدو لكما الأمر وكأنه ضرب من الجنون.. حسنا.. في البداية يجب أن أعود إلى زمن قديم جدا.. إلى عام 1943.. نعم.. فالقصة تبدأ من هناك.. وفي ذروة الحرب العالمية الثانية!!!.. حين كان المسؤولون في الحكومة الأمريكية يبحثون عن سلاح فتاك يحسم الحرب لصالح بلدهم.. فاقترح أحدهم فكرة غريبة للغاية.. أن تقوم الحكومة بتطوير تكنولوجيا تمكنها من إخفاء السفن الحربية عن الأنظار والرادارات.. أي تطبيق قصة (الرجل الخفي) الشهيرة على أرض الواقع.. الفارق أننا هنا نتحدث عن إخفاء سفينة حربية ضخمة بكل طاقمها!!.

سكت قليلا وهو ينظر إلينا عبر المرآة الأمامية.. ثم ازدرد لعابه ليكمل:

- لقد جند المسؤولون في الحكومة الأمريكية أهم العلماء من أجل ذلك.. بما فيهم العالم الشهير (آينشتين) نفسه.. وقاموا بالتحضيرات والتجهيزات بسرية تامة لهذه التجربة الرهيبة.. والتي أجريت في أحد مراسي ولاية (فيلادلفيا) الأمريكية.. فجاؤوا بالسفينة (DE-173) التي سيتم إخفاؤها مع طاقمها المكون من 16 شخصا.. ووضعوا بقربها سفينتين أخريين تحويان المعدات الضخمة والآلات التي سيتم استخدامها.. وبالفعل.. تمت التجربة بنجاح كما بدا للوهلة الأولى.. إذ أحيطت السفينة بمجال كهرومغناطيسي قوي.. ليغطيها فجأة ضباب غريب أخضر اللون.. ثم.. اختفت عن الأنظار لفترة قصيرة من الزمن.. قبل أن تظهر مرة أخرى.. لكن مع الأسف.. النتائج على طاقم السفينة كانت كارثية.. إذ مات بعض البحارة.. وأصيب الناجون بخلل عقلي نقلوا على إثره لمصحات نفسية.. بعد أن أقسموا أنهم شاهدوا أثناء التجربة أشياء غريبة جدا.. فأحدهم ادعى رؤيته لأشباح الموتى من أقاربه.. وآخر أقسم أنه شاهد كائنات غريبة غير بشرية لا يمكن أن تنتمي

لكوكب الأرض.. فأوقفت الحكومة الأمريكية أبحاثها حول التجربة.. وأخفت كل ما يتعلق بها.. وقد أطلق على التجربة فيما بعد اسم (تجربة فيلادلفيا) نسبة إلى مكان القيام بها*.

---

* هناك في واقع الأمر الكثير الذي يجب ذكره عن تلك التجربة.. فقد ظلت مجهولة عدة سنوات.. إلى أن جاء صحفي مغمور يدعى (جون كاربنتر).. ويعمل في صحيفة محلية بمدينة (بوسطن) الأمريكية.. حيث التقى هذا الصحفي صدفة ببحّار كان يعمل في البحرية الأمريكية وعاش التجربة بكل تفاصيلها.. بل وتم إيداعه بسببها في مصح نفسي لفترة من الزمن.. وبعد أن سمع منه (جون كاربنتر) هذه القصة.. راح يتتبع أحداثها ليتأكد من صدقها.. ووجد أن كل خطوة يخطوها تؤكد له أن تلك التجربة تمت بالفعل.. خاصة حين اكتشف أن العالم الشهير (آينشتين) قد تم تعيينه في البحرية الأمريكية وبصورة مفاجئة قبل تاريخ التجربة بفترة قصيرة!!!.. لذا قرر (جون كاربنتر) نشر مقالة صحفية تحدث فيها عن كل ما توصل إليه.. وبعد أيام قليلة من نشر المقالة.. فوجئ بالرسائل تنهال عليه من البحارة الذين شاركوا في التجربة.. وجميعهم يخبرونه بمعاناتهم ويصفون له ما شاهدوا أثناءها من أشياء لا يصدقها عقل.. لكن.. المفاجأة أن جميع هؤلاء البحارة كان لديهم سجل في المصحات العقلية.. مما يعني عدم إمكانية الاعتماد على شهاداتهم قانونيا.. وقد أنكرت البحرية الأمريكية فيما بعد كل ما كتبه (جون كاربنتر).. وادعت أن القصة بأكملها ملفقة ولم تحدث أبدا.. أما أفراد الطاقم الذين لقوا حتفهم.. فادعت أنهم فقدوا في البحر.. والغريب أن معظم الشهود اختفوا تماما بعد ذلك في ظروف غامضة.. منهم (جون كاربنتر) نفسه!!.. ومصيره مجهول حتى الآن.. وقد أطلق على تلك التجربة الغريبة اسم (مشروع قوس قزح) أو (مشروع الإخفاء).. لكن أشهر الأسماء كانت (تجربة فيلادلفيا).. وكل ما ذُكر لا يعني أن هذه الحادثة مؤكدة وقد وقعت بالفعل.. فما تزال القصة بين مصدق ومكذب حتى يومنا هذا.. وكلا الطرفين له أسبابه.. وربما البحث عن (تجربة فيلادلفيا) عبر شبكة المعلومات سيكشف لك -عزيزي القارئ- المزيد من التفاصيل عنها والتي لا تسع المساحة هنا لذكرها.

قلت باستنكار وقد انهرت باكية فجأة:

- إنها المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها إنسانا يحترق أمامي.. والمصيبة أن هذا الإنسان كان زوجي.. دعك من الساعات المرعبة التي عشتها واستنزفت طاقتي النفسية.. فهل تجد الوقت مناسبا بعد كل هذا للحديث عن تجربة علمية سخيفة؟!.

أحاطتني (رغد) بذراعها محاولة تهدئتي وهي تنظر لزوجها باستنكار.. دون أن تفهم هي الأخرى سبب كلامه كما يبدو.. أما المدعو (يعقوب).. فقد دفن وجهه بين راحتي كفيه تأثرا بما قلته.. في حين صمت (فهد) تماما احتراما لبكائي.. ليقول بعد لحظات:

- حسنا.. سأختصر الحديث وأقول أنني قمت -بمساعدة زوجك و(يعقوب)- بتكرار تلك التجربة بعد أبحاث طويلة.. وقد نجحنا كما يبدو بإخفاء الشاليه بأكمله عن أنظار الناس في الخارج!!!.. لكن ثمن النجاح كان رهيبا.. إذ عشنا بسببه ساعات عصيبة جدا.. وخسرت بعدها أقرب أصدقائي إلى قلبي.. زوجك.

نظرت إليه مصدومة وقد تجمدت الدموع في عيني.. ليكمل بحزن وهو يقود السيارة بجمود وينظر إلى الطريق:

- هل تذكرين حين تساءلتِ عن سبب دعوتي الغريبة لكِ ولزوجك إلى الشاليه.. في الواقع كان هناك اتفاق بيني وبينه أن نخبركِ مع (رغد) عن أبحاثنا وأن نفاجئكما بهذا الإنجاز.. بالطبع لم نكن ننوي القيام بالتجربة على أنفسنا خوفا على حياتنا.. فنحن لا نعرف تبعاتها.. دعكِ من أننا لم نكن نملك الطاقة الكافية للقيام بها أصلا.. لكني توصلت إلى الحل منذ أسابيع قليلة فحسب.. حين فكرت باستغلال طاقة الصواعق!!.

قال (يعقوب) بحزن:

- بالفعل.. لقد وجدتها فكرة عبقرية.. وهذا ما جعلني أتواجد على سطح الشاليه محاولا استغلال الأحوال الجوية التي كانت تنذر بالمطر.. دون أن أضايق أمسيتكم على الإطلاق.. آملا أن تنجح الفكرة وأستقطب طاقة الصواعق من خلال عمود صغير صنعته بنفسي بناء على توجيهات (فهد).. هذا العمود يشبه مانع

الصواعق كثيرا*.. حيث كان متصلا بالجهاز الذي قمنا باختراعه للقيام بالتجربة التي قررنا أن نجريها أولا على أي كائن حي.. قبل تجربتها على البشر.. لكن......

سكت وهو يعض على شفتيه بألم.. ثم قال:

- لكن.. امتصاص طاقة الصواعق ساهم دون قصد مني بتشغيل الجهاز.. وهذا ما جعلني أنزل بسرعة من الشباك الموجود في العليّة.. لأقتحم الشاليه من الباب الرئيسي كي أبلغكم أن علينا الخروج سريعا.. كوننا لا نعرف تبعات التجربة على البشر.. لكن.. حين دخلت الشاليه.. كان تأثير الجهاز قد بدأ فعليا.. ويبدو أن له تأثيرا جانبيا على دماغ الإنسان أيضا.. فأصبنا جميعا بنوع من فقدان الذاكرة.. حتى أننا نسينا أمورا بديهية عن كل ما يتعلق بحياتنا خارج نطاق الشاليه.. بل إنني نسيت اسمي كما تعلمون.. خاصة مع عدم وجود محفظتي التي تركتها في

* مانع الصواعق (Lightning Rod) عبارة عن عمود معدني يستخدم لامتصاص التيار الكهربائي الهائل الناتج من الصواعق.. وذلك لحماية المباني والأجهزة والمعدات الكهربائية.. وقد تم اختراعه عام 1749 من قبل العالم الأمريكي (بنيامين فرانكلين) (Benjamin Franklin) والذي يعتبر أيضا أحد مؤسسي (الولايات المتحدة الأمريكية).. وجدير بالذكر أن (بنيامين فرانكلين) هو الذي ابتكر كلمة (Electricity) الإنجليزية.. والتي تعني (كهرباء) باللغة العربية.

السيارة.. ونسيت أيضا (فهد) وزوجك.. رغم أنهما من أقرب أصدقائي.. إنه لأمر بالغ الغرابة.. أن أهرع للدخول كي أحذركم.. وأطلب منكم الخروج من الشاليه فورا خوفا من أي تأثيرات سلبية للتجربة.. ثم أنسى في لحظة واحدة -وحال دخولي- ما جئت من أجله!!.

سألته (رغد) باستغراب:

- لكن.. هذا مستحيل.. لقد كنا نعرف بعضنا جيدا في الشاليه.. كنت أعرف زوجي مثلا.. وأعرف من أنا.. إنني حتى لم أنسَ (ملاك) وزوجها رغم أنها المرة الأولى التي ألتقيهما فيها.. لماذا أنت فقط الذي نسيت كل ما يتعلق بهويتك.. ونسيت حتى صديقيك؟!.

لم يرد أحد على هذا السؤال.. فساد المكان صمت مطبق للحظات.. ليقول (يعقوب) فجأة:

- الإجابة قد تكون معقدة قليلا.. لقد ظللت أطرح هذا السؤال على نفسي طوال فترة وجودنا في المخفر.. بل وطرحته على (فهد) أيضا قبل دخولنا غرفة التحقيقات.. أعتقد أن السبب يكمن في تواجدكم مع بعض حين بدأ

تأثير التجربة.. لهذا لم تتأثر ذاكرتكم حول الأشياء التي ترونها أمامكم لحظتها.. بنفس المنطق الذي يجعل المرء لا ينسى مكان هاتفه الذكي مثلا وهو يراه أمامه.. أما حياتكم خارج الشاليه.. فقد نسيتم كل ما يتعلق بشأنها لأنها كانت بعيدة عن أنظاركم حين بدأ تأثير التجربة.. فلم يتذكر أحد أفراد عائلته.. أو حتى وظيفته.. بل ولم يتذكرني (فهد) والمرحوم رغم صداقتنا المتينة!!.. لكنكم عموما لم تنتبهوا إلى فقدانكم لذاكرتكم إلا حين بدأ كل منكم يستذكر ما يعرفه عن حياته الخاصة.

صمت قليلا ليرتب أفكاره كما يبدو.. ثم أكمل:

- أما أنا.. فقد نسيت كل ما يتعلق بحياتي خارج الشاليه.. ونسيت أيضا هوية الأشخاص الموجودين في الداخل.. لأنني لم أكن أجلس معكم لحظة بدء تأثير التجربة.. وكنتم بعيدين عن أنظاري.

لم أنطق بكلمة.. فصدمة الكلام كانت أكبر من قدرتي على استيعابه.. ليكمل (فهد) مغمغما:

- هذا ما توصلت إليه أنا أيضا يا صديقي!!.

سألتهما (رغد) باستغراب:

- لكنكما تقولان أن (تجربة فيلادلفيا) هذه حدثت بوجود سفينتين عملاقتين تحويان أجهزة معقدة لإجرائها.. فكيف اختزلتما الأمر بجهاز صغير وضعتماه في العليّة؟!.

قال (فهد) ببساطة:

- لا تنسي أن الفارق بين تجربتنا و(تجربة فيلادلفيا) أكثر من 70 عاما.. لقد نفذنا تجربتنا بتكنولوجيا أكثر تطورا بكل تأكيد.. آملين أن نحقق إنجازا علميا غير مسبوق بفضل نبوغنا الشديد بتخصصاتنا الدراسية.. فأنا أيضا مهندس ميكانيكي.. و(يعقوب) مهندس كهربائي.. المهم أننا ابتكرنا غازا داكن اللون عديم الرائحة قادرا على امتصاص الضوء دون أن يعكس منه شيئا.. وهو شبيه بمادة تم اختراعها مؤخرا من قبل إحدى الشركات*.. كما استخدمنا أيضا تكنولوجيا

---

* يتحدث هنا عن مادة حقيقية حالكة السواد تشبه الطلاء قليلا تم اختراعها مؤخرا من قبل شركة بريطانية.. وتمتص هذه المادة 99.96% من الضوء!!.. حتى أن العين البشرية لا تستطيع تمييز شكلها وبُعدها.. وتقلل هذه المادة كثيرا من الضوء المشتت.. مما يُحسّن من قدرة المراصد الحساسة على مشاهدة النجوم الخافتة والبعيدة.. كما سيتم استخدامها في المستقبل القريب في مجال التصوير الضوئي أيضا لإخراج صور أكثر دقة ونقاوة.. ويطلق على المادة اسم (فانتابلاك) (Vantablack).

النانو* نفسها لصنع جهاز أصغر بكثير من الأجهزة التي استخدمتها البحرية الأمريكية.. وقد نجحنا كما رأيتم.. لكن الجهاز دخل طور العمل من دون قصد.. حين نجحت فكرة (يعقوب) باستغلال طاقة الصواعق.. ليتم إخفاء الفيلا عن أنظار العالم كله في الخارج.. أما في الداخل.. فكل شيء بدا طبيعيا.. لكن العالم الخارجي أصبح مظلما داكنا بالنسبة لنا عجزنا عن رؤيته من خلال النوافذ.. وقد كان هذا خطأ في التجربة لا أعلم إن كنا سنتداركه مستقبلا.. إذ يفترض أن نتمكن من رؤية العالم الخارجي كله بصورة طبيعية.

كان ما أسمعه أكبر بكثير مما يمكن أن أحتمله.. بل وأكاد أقسم أنها المرة الأولى في حياتي التي أعاني فيها الحزن والأسى

---

* تكنولوجيا (النانو) (Nano Technology) هي تكنولوجيا حديثة تعتبر نقلة نوعية في تاريخ العلم.. و(النانو) وحدة قياس تعادل جزءا من المليار.. فلو كانت وحدة القياس (متر) على سبيل المثال.. لكان (النانو متر) جزءا من مليار من المتر.. وبالتالي فهو رقم صغير جدا.. ويتم استخدام تكنولوجيا (النانو) في مجالات كثيرة.. كصناعة أجهزة الكمبيوتر والهواتف الذكية.. وأجهزة التلفاز التي أصبحت شاشاتها أكثر جمالا ووضوحا.. حيث بات يرمز لها بـ (LED) اختصارا لـ (Light-Emitting Diode) أو (الصمام الثنائي الباعث للضوء).. وهناك أيضا وحدات الإنارة ذات التوفير الكهربائي.. والتي تحمل ذات الرمز.. كما تستخدم تكنولوجيا (النانو) في المجالات الطبيّة.. وتحديدا في صناعة المجاهر المكبّرة ومراقبة الخلايا في الأمراض المزمنة.. ودراسة الحمض النووي.

والصدمة والذهول بنفس الوقت!!!.. لتقول (رغد) باستغراب بالغ:

- هل تعني يا (فهد) أنك كنت تحاول صنع طاقية الإخفاء كما حدث في (تجربة فيلادلفيا) التي أخبرتنا عنها؟!.

رد بأسى وهو ينظر إليها عبر المرآة:

- نعم يا عزيزتي.. لقد كانت أحلامنا تتجاوز استكمال الدراسة والحصول على الشهادات العليا.. كنا نريد أن نبتكر شيئا يقلب موازين العالم رأسا على عقب.. إنجازا كبيرا نفخر به.. فجاء زوجك يا (ملاك) بفكرة محاولة إعادة (تجربة فيلادلفيا).. أصدقكم القول أن الفكرة كانت ساحرة.. وألهمتنا كثيرا.. حتى أننا تناقشنا بجدية عن مدى إمكانية تطبيقها.. قبل أن نجري أبحاثنا حولها بهدوء.. و.. بعد أكثر من 4 سنوات من العمل المتواصل دون توقف.. نجحنا بصناعة الجهاز!!!.. وقد كنا نريد إخباركما بهذا الأمر مساء أمس أثناء وجودنا في الشاليه كي تحتفلا معا بإنجازنا.. كنا ننتظر فقط دخول (يعقوب) حتى نعرفكما به ونتحدث عن مشروعنا.. وهذا تحديدا

سبب تجمعنا في الشاليه.. كما كان من المفترض أيضا أن نسافر إلى (الولايات المتحدة الأمريكية) خلال الأيام القادمة لعرض المشروع على كبرى المؤسسات العلمية.

سألته بألم:

- ماذا عن الجثة المتفحمة التي كانت في المطبخ؟!.. من صاحبها بالضبط؟!.. كيف ظهرت.. وكيف اختفت؟!.

رد بألم مماثل:

- يفترض أنك تستطيعين الآن استنتاج سر تلك الجثة؟!.. فقد كانت في الواقع جثة زوجك رحمه الله!!!.. نعم.. يبدو أن التأثير القوي للجهاز تسبب بصورة أو بأخرى في فتح بوابة لرؤية المستقبل القريب.. لم أكن الوحيد الذي رأى الجثة بالطبع.. فزوجك رآها أيضا.. دون أن يتخيل أي منا للحظة أن الجثة في واقع الأمر جثته هو بسبب احتراقها الكامل وتفحمها.. ولو كان أحد منا جرؤ على لمسها.. لانتبه أنها مجرد صورة ضبابية غير مادية.. تماما كما هو الحال مع فكرة الأشباح -بغض النظر عن حقيقتها- التي نراها لكنا نعجز عن لمسها..

والأمر شبيه إلى حد ما بما رآه طاقم تلك السفينة في (تجربة فيلادلفيا).

كان هذا يفوق أكثر قصة خيالية قد يأتي بها عقلي!!!.. يفوق كل ما عرفته في حياتي عن الخيال.. يا له من يوم.. يوم له مذاق غريب كريه للغاية لا أعرف كيف أصفه.. وكأنني (هاري بوتر) الذي يعيش في مدينة مزدحمة طبيعية.. لكنه يعرف مكانا سريا يرتاده السحرة.. حيث يتحقق فيه كل ما ينافي الواقع.. الفارق هنا أن كل ما عشته يحدث بلغة العِلم فقط.. العِلم وحده.. بعيدا عن الخرافات!!!.

ثم.. (فهد) يقول بعد تنهيدة حزينة:

- لحسن حظ الخادمة أنها لم تكن بيننا.. فقد خرجت قبل هطول الأمطار.. وقبل عمل الجهاز.

سألته بقهر:

- ماذا عن الباب والنوافذ؟!.. كيف يعقل أن نعجز عن كسرها؟!.

رد (يعقوب):

- الجهاز أنتج طاقة هائلة أحيطت بالشاليه لتمنع وصول أي ضوء إليه كي تخفيه عن الأنظار.. هذه الطاقة على ما يبدو امتصت كل الضربات التي وجهناها للأبواب والنوافذ.. تماما كمن يحاول أن يضرب كيس الملاكمة فيرتد في كل مرة دون أن يتأثر.. لكن يبدو أن طاقة الجهاز -ولسبب لا أفهمه حتى الآن- تعزل من هم في الداخل فقط.. لهذا عجزنا جميعا عن الخروج.. في حين يستطيع أي شخص في الخارج دخول الشاليه بسهولة.. وهذا ما حدث معي حين استجاب لي الباب ببساطة واقتحمت المكان.. ويعلم الله إلى متى كنا سنظل محبوسين في الشاليه.. قبل أن ينضب مخزون الطاقة في الجهاز ونتمكن من الخروج.. أستطيع أن أقول أن زوجك أنقذ حياتنا حين عبث في الجهاز دون قصد..مما تسبب بهذا الحريق الهائل الذي.....

لم يكمل عبارته.. بل سكت وهو يعض على شفتيه ألما.. فقلت بذهول والدموع لم تجف من عينيّ بعد:

- كيف وجد زوجي الوقت ليجتمع معكما كي تقوموا بتلك الأبحاث كما تقولان؟!.. فهو لم يكن يخرج كثيرا!!.

زفر (فهد) بقوة وهو يقول:

- لا تنسي أننا جميعا تزوجنا حديثا.. فقد اجتمعنا كثيرا قبل الزواج.. وبعد الزواج أصبح تواصلنا في الغالب عبر الرسائل الهاتفية.. خاصة أنني و(فهد) كنا نتحمل مسؤولية دراسة وتصميم هذا المشروع على الورق.. أما (يعقوب) فهو الذي تحمل مسؤولية التنفيذ.

سألته (رغد) باستغراب:

- كيف تحدّث زوج (ملاك) عن (الزمكان)؟!.. ألا يفترض أنه فقد ذاكرته أيضا أثناء وجوده في الشاليه؟!.. كيف خرج بنظرية علمية كهذه يفترض أنه قرأها في مكان ما خارج الشاليه؟!.

أجاب (فهد) وقد ترقرت الدموع في عينيه للمرة الألف:

- لأنه قرأ الكتاب ويمتلك نسخة منه كما أشار بنفسه.. ولأن الكتاب كان أمام عينيه طوال الوقت على أحد

أرفف مكتبتي الصغيرة في الشاليه.. بنفس المنطق الذي أشار إليه (يعقوب) قبل قليل.. حين ذكر أننا لا يمكن أن ننسى شيئا نراه أمام أعيننا لحظتها.

ما زلت أعجز عن استيعاب هذه القصة.. أشعر أن عقلي بأكمله مضطرب.. إنني في مرحلة غريبة بين الغموض والذهول والحزن.. أريد أن أبكي لكني عاجزة!!!.. و.. السيارة تقترب أخيرا من شقتي.. لأتذكر بألم كيف كان زوجي يقضي وقته في غرفة المكتب ويعمل بحماس دون أن أفهم ما يفعله.. ظنا مني أن الأمر يتعلق بدراسة الماجستير فحسب.. أتذكر حين كان يتحدث عن المجد.. عن الثراء.. عن إنجاز علمي يفخر به.. لينتهي الأمر بوفاته!!.. حقا علينا الحذر من أمنياتنا.. فربما تقودنا أحيانا إلى حتفنا!!!.

لم تنتهِ الأمور عند هذا الحد بالطبع.. فقد مررت بأوقات عصيبة في الأيام التالية.. ولحظات انهيار عائلة زوجي كانت مؤلمة جدا.. إذ أغمي على والدته حال معرفتها بالخبر.. ليتم إسعافها سريعا.. ويبدأ بعدها الصراخ والبكاء ألما على ولدها الذي فقدته في هذه السن المبكرة وبعد زواجه بفترة قصيرة!!..
أما والده.. فقد كنت أرى الدموع في عينيه.. لكنه ظل يحاول

احتواءها كي يبدو متماسكا أمام الجميع.. ولا داعي أن أصف حال أشقائه.. أو حتى الحال في بيت عائلتي.. لأن الأحزان تتشابه كما نعلم.. جميعها تستنزف طاقتنا النفسية والعقلية.. جميعها تحطم قلوبنا.. إلا أنني تعافيت من أحزاني تدريجيا مع مرور الأيام.. وقد قررت المضي بحياتي دون أن يعلم أحد حقيقة ما حدث في تلك الليلة السوداء.. سوى قلة قليلة من الأشخاص الذين ذكرتهم لكم في سياق قصتي.

كنت أعلم أنني سأكون بخير فيما بعد.. فكل الآلام تمر.. لكنا لا نكون بعدها كما كنا قبلها أبدا!!!.. خاصة وأنني لست مجرد زوجة مسكينة توفي زوجها -قضاء وقدر- إثر حادث مأساوي أثناء وجودها في الشاليه مع صديقه وزوجته.. لكني عشت أيضا تجربة غريبة مخيفة غامضة لا أظن أحدا عاشها قبلي.. حتى ظننت للحظة أنني سأظل مسجونة في الشاليه طوال العمر.. حين قضيت فيه بضع ساعات بدت لي دهرا.. كنت فيها بعيدة تماما عن العالم بأسره.. قلقة.. متوترة.. وفي عزلة!!!.

إرث ثقيل!!

تحكيها: مُهرة

العمر: 26 سنة

أعترف أنني شديدة الثقة والاعتداد بنفسي.. نعم.. فهذه أول صفة سيلاحظها كل من يلتقِ بي للمرة الأولى.. ربما لأنني جميلة بشهادة الجميع.. واعتدت منذ فترة مراهقتي أن أرى نظرات الإعجاب على وجوه الشباب الذين يحاولون التقرب مني ولفت انتباهي.. بل وامتد الأمر بعد ذلك إلى فترة دراستي الجامعية.. مرورا بوظيفتي في أحد البنوك.. حيث ظللت أتلقى كلمات الغزل بصورة يومية تقريبا من العملاء.. حتى أن بعضا منهم كان يحاول معرفة إن كنت متزوجة أو مرتبطة بعلاقة.. فأذكّر الجميع بوضوح أننا في مكان عمل ويجب احترام ذلك.

وربما ساعد على اعتدادي بنفسي اهتمام والديّ وأشقائي الشديد بي وتنفيذهم لطلباتي -دون نقاش- كوني آخر العنقود والفتاة الوحيدة بين 3 أولاد.. فكنت أشعر دوما أنني محظوظة بحق.. وأن الحياة منحتني كل ما أحتاجه رغم أنني من عائلة متوسطة الدخل.. وهذا ما جعلني أردد لنفسي دوما.. أن الشاب الذي يفكر بالارتباط بي سيكون أمام تحدّ حقيقي كي يجعل حياتي أفضل.. فكيف سيغري أميرة مثلي بالزواج منه؟!.. خاصة وأنني أهتم كثيرا بلياقتي ورشاقتي..

وأهتم أيضا بالقراءة وتطوير مستواي الفكري.. بالطبع.. فلن يميزك أحد إذا لم تميز نفسك بنفسك.. هذا شعاري في الحياة.

لقد حاولت أمي أن تقنعني ببعض ممن تقدموا لي ووجدَت أنهم مناسبون للزواج من وجهة نظرها.. لكني ظللت أرفض باستمرار لعدم اقتناعي بتلك الطريقة التقليدية للزواج.. وأفضل أن يتم بعد علاقة عاطفية.. المشكلة أن معايير اختيار فارس الأحلام بالنسبة لي صعبة للغاية وتلغي مباشرة ثلثي الشباب من قائمتي!!!.. لذا ظلت مغامراتي العاطفية محدودة جدا كوني أخضع الشباب دوما لمقاييسي الصارمة وأجد أنهم فشلوا باجتيازها.. فأين سنجد الشاب الشجاع الهادئ ممشوق القوام قوي الشخصية.. الذي يمتلك الحكمة لمعالجة أي مشكلة يواجهها.. لكنه -في نفس الوقت- حنونا محبا يقاتل ويتحدى كل الصعاب من أجل الفوز بحبيبته؟!.

ربما لهذا السبب تحديدا عشقت قصص الحب الطفولية التي تدور أحداثها في العصور الوسطى.. حين يقاتل الأمير جيشا من الأعداء.. ثم يحمل حبيبته على حصانه لتعيش معه في قصر الأحلام.. فأنهي تلك القصص وأنا أنظر إلى سقف حجرتي بهيام.. قبل أن أخرج من دائرة الخيال هذه وأبدأ أفكر في

الواقع.. لينتابني شيء من خيبة الأمل كون العثور على شاب كهذا مستحيلا تقريبا.. مع إدراكي التام بالطبع أن معايير فارس الأحلام الآن اختلفت عن الأزمان القديمة.. وأصبحت مرتبطة بالشاب الجامعي الثري الطموح وسيم المظهر.. تراودني تلك الأفكار بين الحين والآخر.. قبل أن يظهر ذلك الشاب في حياتي فجأة.. ويغير عالمي بأكمله.

كنت يومها أجلس وحدي في مقهى (كوفي بينز) مقابل (قصر السيف) والساعة لا تتجاوز السابعة مساء.. أقرأ كتابا عن تطوير الذات امتلأت صفحاته باللون الأصفر الفوسفوري لجمل وعبارات رأيتها مهمة للغاية علني أستفيد منها في وظيفتي.. ففوجئت بمن يقترب مني بجرأة غير عادية.. ثم يسحب الكرسي المقابل لطاولتي ويجلس بهدوء دون استئذان أمام نظراتي المتسائلة!!.

أشعرني تصرفه بحرج شديد.. فسألته وأنا أنظر إليه مستغربة:

- ماذا تريد؟!.

أجاب برجاء وبلهجة مهذبة هادئة:

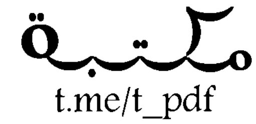
- التواصل معك هاتفيا!!.. هذا حلمي الآن ولا أريد من العالم كله شيئا آخر غيره.. أرجوك لا ترفضي طلبي.. إنها

مكالمة هاتفية واحدة.. ربما تؤدي لأمور إيجابية كثيرة في حياتنا.. أو ينتهي كل شيء بسلام دون مشاكل.

ألتفت حولي لأجد كل من في المقهى منشغلا بنفسه ولا يلتفت إلينا.. ثم.. أعود وأنظر إلى ملامح الشاب.. يبدو لي في منتصف الثلاثينيات من العمر.. وسيم الملامح.. طويل القامة.. له جسد رياضي متناسق دون تكلّف أو مبالغة.. كما بدا لي شديد الاعتداد والثقة بنفسه.. إلا أن جمالي أسر قلبه كما هو واضح.. وجعله يتنازل عن كبريائه.. هل سأصف تصرفه بالوقاحة؟!.. أبدا.. فلكل شاب الحق بالتقرب من أي فتاة تروق له.. وللفتاة كل الحق أيضا بالرفض أو القبول.. هذا رأيي بكل بساطة.

تمر تلك الخواطر في ذهني بسرعة البرق.. ثم أقول بلطف غير مقصود:

- لكن.. أنا لا أعرفك.



رد بأمل:

- امنحيني الفرصة إذا لتعرفيني جيدا.. حينها سيكون القرار متروكا لك بالاستمرار أو إنهاء كل شيء إلى الأبد ودون أن يتضرر أحد.. أرجوك!!.

هذا التوسل يشبع غروري كثيرا.. خاصة حين يصدر من شاب توحي ملامحه بقوة الشخصية والنضج رغم تصرفه الأرعن بالجلوس على طاولتي دون استئذان.. عموما.. لا بأس.. فالجمال يأسر.. هذا ما قلته لنفسي قبل أن أنظر إليه للحظات.. ثم.. أومئ برأسي موافقة دون أن أفهم أنا نفسي السبب!!.. و.. لا يمكن وصف ملامح الفرح الواضحة على وجهه.. إذ تهللت أساريره.. وراح يملي علي رقم هاتفه بلهفة شديدة.. ثم أخبرني بحماس أن اسمه (مساعد).. فأخبرته بالمقابل باسمي دون حرج.. نعم.. شعرت أنني يجب أن أمنحه الفرصة.. بعد أن وجدت صفاته الأولية قريبة جدا من صفات فارس الأحلام التي رسمتها في خيالي.. لذا لا أملك أي عذر للرفض.

أمسكت بعدها بالكتاب وحاولت أن أندمج فيه مرة أخرى.. وهي طريقة مهذبة أخبر فيها (مساعد) -بعد أن عرفنا اسمه- أن ليس لدي ما أضيفه.. فتنحنح وغمغم بكلمات الاعتذار.. ثم نهض عائدا إلى مكانه لينشغل بجهاز الكمبيوتر المحمول.. أرفع عيني عن الكتاب بين الوقت والآخر.. لتصطدم نظراتي به وهو يراقبني أيضا بنظرات خاطفة.. فيشعر كلانا بالحرج ونعود لنحاول التركيز بما كنا نفعله!!.

لكني عجزت عن قراءة كلمة واحدة من الكتاب بعد هذا اللقاء.. هل هي مشاعر الفرح واللهفة؟!.. لا أعلم.. لذا نهضت من مكاني خارجة من المقهى متجهة إلى مواقف السيارات.. لأفاجأ بـ(مساعد) وهو يتبعني أيضا متجها بدوره إلى سيارته.. وكأنه فقد الرغبة بالتواجد في المقهى بعد خروجي.. مهلا.. هل يعقل أن يمتلك شاب بمثل سنه سيارة فارهة كهذه؟!.. لا يمكن.. إلا لو كان ينتمي لعائلة فاحشة الثراء!!.. هل يعقل أن يحمل (مساعد) هذا كل مؤهلات فارس الأحلام التي طالما رسمتها في خيالي؟!.. سأعرف قريبا على كل حال!!.

هذا ما قلته لنفسي وأنا أركب سيارتي وأدير المحرك متجهة إلى بيتنا في منطقة (قرطبة).. حيث اتصلت بـ(مساعد) مباشرة بعد أن أخذت وضعي المريح في القيادة.. وقد نسيت كل قواعد الدلع التي تمارسها الفتاة عادة.. حين تتأخر باتصالها قليلا كي تظهر للطرف الآخر أنها صعبة المنال.. ليرد (مساعد) على اتصالي بلهفة شديدة.. وتبدأ علاقتي به منذ تلك الليلة!!!.. حيث شعرت أنني وقعت على كنز بشري.. بالطبع.. كيف لا يتعلق قلبي بشاب يمتلك كل المواصفات التي طالما حلمت بها؟!.. فبالإضافة إلى وسامته.. اكتشفت أنه -كما كان متوقعا-

ينتمي لعائلة ثرية معروفة للغاية.. لكنه شاب مكافح بنفس الوقت.. ولم يعتمد على ثروة عائلته رغم الملايين التي ورثها من والديه -رحمهما الله- اللذين توفيا منذ عدة سنوات.. إذ درس الاقتصاد في (الولايات المتحدة الأمريكية) وتخرج بتفوق.. ليعود إلى (الكويت) ويؤسس شركة خاصة به سرعان ما ازدهرت وكبرت.. كما علمت أنه رياضي من الدرجة الأولى.. يقضي معظم أوقات فراغه في الأندية الصحية.. والأهم من كل هذا أنه طيب القلب رزين التفكير يتصرف بعقلانية.. ويراعي مشاعري كثيرا.

وهذا ما جعل علاقتنا تتطور سريعا إلى قصة حب!!!.. فقد كان من العسير أيضا ألا يقع بدوره في غرامي مع كل ما ذكرته عن نفسي في بداية قصتي.. خاصة بعد أن أسرت قلبه في مكالماتنا الهاتفية.. كوني ألتزم بقواعد صارمة للحوار تعلمتها من قراءاتي المستمرة.. فلا أتحدث عن نفسي أبدا إلا لو سألني أحدهم.. وأن تكون إجاباتي دوما مقتضبة غير مملة.. وأن أتحدث حول أمور تهم الطرف الآخر.. قواعد بسيطة بديهية لكنا ننساها دوما حين نحصل على فرصة للحديث.

استمرت قصة الحب هذه بضعة شهور التقينا خلالها كثيرا في المقاهي والأماكن العامة.. قبل أن يتحدث (مساعد) أخيرا عن رغبته بالارتباط الرسمي.. نعم.. الزواج!!.. فكانت واحدة من أسعد لحظات حياتي.. بل وزادت سعادتي حين اشترط علي أن أترك وظيفتي.. مع الوعد أن أمسك منصبا مهما في شركته بعد زواجنا.. لأنني أميرة في نظره.. والأميرة لا يحكمها رئيس.. بل هي التي تحكم.. هذا ليس كلامي.. بل كلامه هو!!. بالطبع وافقت مباشرة وبعينين مغرورقتين بالدموع تأثرا بحبه.. غير مصدقة أن الحياة تستمر بتدليلي بهذه الطريقة الغريبة.

وفي غضون أسابيع قليلة.. تقدم (مساعد) لخطبتي رسميا بحضور شقيقته الكبرى.. ولم يخفَ علي برودها ونظرتها المتعالية لي ولوالدتي المسكينة التي لم تهتم كثيرا لذلك.. طالما تراني سعيدة وموافقة على الزواج.. ولم يكن هذا البرود مفاجئا.. فقد أخبرني (مساعد) صراحة أنه واجه معارضة شديدة من جميع أشقائه وأقاربه بسبب تفكيرهم العنصري المتعلق بالفوارق الاجتماعية والمادية بين عائلتينا.. وهو أمر متوقع من الطبقة

الأرستقراطية* التي غالبا ما تكون متعجرفة مع الأسف.. إلا أنه لم يلتفت لهم.. وأصر أن يتبع قلبه ويرتبط بي ضاربا باعتراضاتهم عرض الحائط.. فخضعوا له في النهاية دون اقتناع.. كما ظل بالمقابل يتوسل إلي أن أتجاهل الجميع وأتذكر فقط حبه لي.. وأننا سنعيش بعيدين عن أفراد عائلته ولن تكون لهم أي سلطة على حياتنا.

أما لقاء (مساعد) بوالدي وأشقائي فكان ناجحا بكل المقاييس.. ولم أستغرب أبدا انطباعهم الأول عنه.. وفرحتهم الشديدة حين علموا بمؤهلاته التي تفوق كثيرا -وبكل صراحة- مؤهلات عائلتي.. ليبارك والداي الخطوبة.. ويتم عقد القران بعد أسابيع قليلة.. تبعه حفل الزفاف الفاخر الذي كان ليلة عمر بحق.. رغم محاولات شقيقاته وقريباته بإفساد فرحتي من خلال برودهن المستمر في التعامل مع قريباتي ومعي!!.. ولا أعتقد أن الأمر يتعلق فقط بالفوارق الاجتماعية بين العائلتين.. بل

---

* الأرستقراطية (Aristocracy) لقب يطلق على الطبقة الاجتماعية التي تملك النفوذ والمال.. مما يجعلها تشغل مراتب مهمة في المجتمع.. سواء بصورة رسمية كما كان يحدث في الأزمان القديمة حين كان يطلق على أفرادها لقب (باشا) أو (دوق).. أو بصورة غير رسمية كما هو الحال في الكثير من المجتمعات حاليا.. وكلمة (أرستقراط) مشتقة من كلمتين باللغة اليونانية.. (Aristos) وتعني المطلق.. و(Kratos) وتعني القوة.. ليأتي المعنى (القوة المطلقة).

بجمالي أيضا الذي أثار غيرتهن.. فأحيانا كثيرة يكون الإعجاب مرسوما على هيئة حقد!!!.. لكني كنت مستعدة لكل هذا من الناحية النفسية على الأقل.. خاصة مع مساندة زوجي لي.. فأنا أثق به تماما.. وليغضب من يغضب.

انتقلنا بعدها إلى عش الزوجية أخيرا.. وإن كانت كلمة (عش) متواضعة جدا قياسا للبيت الكبير الذي انتقلنا إليه!!!.. لا أريد استخدام كلمة (قصر) كي لا يتهمني أحد بالمبالغة.. لكن هذا البيت يعادل ربما 4 بيوت على الأقل لأسر متوسطة الدخل في (الكويت).. ولا أنسى كيف انحبست الكلمات في لساني حين دخلته أول مرة ورأيت حديقته الرائعة التي تحظى بعناية كبيرة.. أما من الداخل.. فالبيت تفوح منه رائحة العراقة وفخامة الزمن القديم إن صح التعبير.. وهو بناء زمن السبعينيات الجميل كما هو واضح من التصميم.. لقد كان (مساعد) يقيم هنا وحيدا بعد وفاة والديه وزواج أشقائه وارتباط كل منهم بحياتهم الأسرية الخاصة.. فلا يعيش معه سوى مجموعة من الخدم الذين يقومون بعملية تنظيف شاملة لكل ركن في البيت بصورة دورية.. ويعدون قائمة من المأكولات التي تتغير باستمرار منعا للملل.. هذا المكان الرائع سيكون مملكتي..

سأعيش فيه كالأميرات.. هكذا كنت أردد لنفسي بسعادة.

وقد سألت (مساعد) عن سبب بقاء البيت على هذا الحال طوال تلك السنوات وعدم تجديده.. فتعلل بأمور كثيرة.. أهمها أن البيت ليس ملكا شخصيا له.. بل إرث عائلي يملكه جميع أشقائه بعد وفاة والديه.. وأنهم سيقومون ببيعه لاحقا.. بعد أن يشتري قريبا قطعة أرض ويقوم ببنائها لتكون عش الزوجية الدائم.. وهذا ما وعدني به بالفعل قبل الزواج.. فسألته عن سبب عدم إقدامه على تلك الخطوة سابقا وقبل ارتباطنا!!.. ليجيب باعتذار أنه لم يكن يملك الوقت لانشغاله الدائم في إدارة شركته.. ولأنه أراد أن تضع زوجة المستقبل (أنا) لمساتها على تصميم الفيلا الجديدة.. ألم أقل لكم أنه شاب رائع؟!.. عموما.. لم أكن أمانع البقاء في هذا البيت إلى الأبد.. فهو يفوق كل ما أحلم به.. خاصة غرفة النوم شاسعة المساحة.. والتي تحوي كل ما قد أحتاجه.. حتى لأتساءل إن كان هناك داعٍ لباقي غرف البيت أصلا.

أما أكثر ما لفت انتباهي.. فهو تلك اللوحة الزيتية الرائعة التي تحتل جانبا كبيرا من حائط غرفة المعيشة الضخمة في الدور الأرضي!!!.. إنها لوحة قديمة تم رسمها باحترافية.. يحتل

الجانب الأيسر منها رجل صارم الملامح في منتصف الخمسينيات من العمر.. يرتدي الزي الوطني القديم.. حيث عرفت أنه جد (مساعد) الذي توفي منذ زمن طويل.. أما الجانب الأيمن من اللوحة.. فيمثل بيت كويتي من حقبة ما قبل النفط.. رسم يدل على عراقة تلك الأسرة وثرائها الذي يمتد لأكثر من جيل.

كان كل شيء يوحي أن حياتنا الزوجية متجهة إلى الاستقرار دون أي مشاكل.. خاصة بعد أن عرفت (مساعد) جيدا في شهر العسل الذي قضيناه في ربوع أوروبا.. وأدركت خلاله أنه لطيف المعشر.. يحبني كثيرا ويرغب بإسعادي بالفعل.. وقد بدا هذا واضحا من مراعاته الدائمة لمشاعري.. واحترامه لأفراد عائلتي الذين ظل يتواصل معهم أثناء سفرنا ويسأل عن أحوالهم باستمرار.. حتى أن أبي قال له صراحة بعد عودتنا من شهر العسل:

- أنت شاب رائع يا ولدي.. كنت دوما شديد القلق على ابنتي وأخشى أن يرتبط بها زوج يؤذيها وينغص عليها حياتها.. لكني مطمئن تماما الآن.. فلن أجد أبدا من هو أفضل منك.

شهور قليلة مرت على زواجنا واستقرارنا لم يحدث فيها ما ينغص علي حياتي سوى أمر واحد فقط.. أتحدث عن سفر (مساعد) الدائم الذي يتجاوز 4 مرات في الشهر -على الأقل- لإتمام صفقاته التجارية.. نعم.. أعترف أنه يتواصل معي باستمرار أثناء سفره.. ويعود دوما بالهدايا الثمينة ليكسب رضاي.. وأعترف أيضا أنه حذرني بنفسه سابقا من هذا الأمر وأن علي أن أتقبل طبيعة حياته وعمله.. لكنني -ورغم كل وعودي السابقة له- بدأت أشعر بالملل والوحدة في هذا البيت الكبير بسبب غيابه المتكرر.. حتى صارحته بذلك ذات يوم.. فابتسم بحنان ووعدني بمنح نفسه إجازة صيفية كل عام لا تقل عن شهر كي يقضيها بأكملها معي.. ونسافر خلالها إلى أي مكان أختاره.. كما جدد وعده بمنحي منصبا مهما في شركته قريبا.. واعتذر عن تأخره بالقيام بهذه الخطوة كما وعد قبل الزواج.

لم تكن تلك الوعود كافية في ظل غيابه المتكرر.. لكني لم أكن أملك الاعتراض أيضا.. لذا ظل يسافر ويتركني أوقاتا طويلة أضطر خلالها للبقاء وحيدة في الفيلا.. وفي غرفتي تحديدا أمام شاشة التلفاز أو شاشة هاتفي.. وأحيانا كنت أزور عائلتي.. أو أخرج مع صديقاتي قتلا للملل.. فألاحظ بوضوح نظرات الغيرة

كونهن يعلمن جميعا طبيعة الرجل الذي تزوجته.. لكن.. حتى نظرات الغيرة هذه باتت مملة ومزعجة مع مرور الوقت.. شبيهة بما يشعر به النجم السينمائي حين يخرج إلى الشارع.

شهور قليلة أخرى مرّت على نفس الوتيرة.. قبل أن تأتي تلك الليلة المشؤومة أثناء سفر زوجي.. كان هذا حين عدت إلى البيت متأخرة بعد أمسية جميلة قضيتها مع صديقتي بتناول العشاء ومن ثم الجلوس في أحد المقاهي.. أتذكر أنني أخذت حماما ساخنا قبل الذهاب إلى الفراش.. وأطفأت بعدها الأنوار سوى من إضاءة النوم الخافتة.. حيث ظللت أعبث في هاتفي قليلا كما نفعل جميعا قبل النوم.. لأضعه جانبا وأغطي جسدي بأكمله باللحاف.. أحاول أخذ وضعية مريحة للنوم ومن ثم أطلق العنان لخيالي للتفكير بما هو قادم.. على أن تختلط علي الأمور وأنام أخيرا.

لا أذكر متى سرقني النوم من عالم الواقع.. لكن أتذكر أنني لم أنم سوى ساعات قليلة.. إذ استيقظت فجأة شاعرة برغبة ملحة بالذهاب إلى الحمام.. أحاول أن أتجاهل تلك الرغبة وأغمض عيني.. لكني عجزت.. يبدو أنه لا مفر من النهوض.. فأترك السرير وأنا أتثاءب وأهرش رأسي بكسل.. على أن أعود

بعدها إلى النوم.. مستمتعة بأن عقلي خالٍ من المشاكل.. فلا عمل ولا مسؤوليات ولا أطفال.

أقضي حاجتي وأخرج من الحمام لأسير عائدة إلى الفراش.. أتوقف للحظة بسبب شعوري بالعطش.. فأتجه إلى الثلاجة الصغيرة في ركن الغرفة.. لكن.. الخادمة نسيت وضع زجاجات ماء جديدة.. أخرج من غرفتي وأذهب بطريقة آلية إلى الثلاجة في المطبخ التحضيري.. أمر عبر غرفة المعيشة الواسعة المظلمة سوى من إضاءة خافتة في الزاوية.. ثم.. ما هذا؟!.. هل حقا ما لَمَحْتَه حقيقي؟!!.. أم إنها خدعة بصرية تحدث أحيانا بسبب مشاهدة الأشياء من طرف العين؟!.. أطلقت شهقة والتفتّ مفزوعة لأتأكد مما أراه.. جزء من الثانية تسمرت فيها بمكاني وتحولت خلالها إلى صنم!!!.

يفترض أن أملأ الدنيا صراخا.. أو أهرب.. لكن.. هذه اللحظة ستأتي لا محالة.. علي أولا استيعاب الصدمة.. هناك فتاة متوسطة القامة ترتدي فستانا طويلا قذرا.. وقد حجب شعرها الطويل وجهها تماما حتى تكاد لا ترى منه شيئا.. كانت الفتاة تقف بثبات غريب ملتصقة بالحائط وهي تنظر إلي مباشرة دون أن ترمش عينيها.. كيف عرفت كل هذا إذا كنت لا أستطيع

أن أرى وجهها؟!!.. لا أعلم.. إنه الانطباع العام فحسب.. لم يكن هذا أغرب ما بالأمر.. فقد كانت الفتاة نحيلة جدا وعظام كتفيها بارزة بوضوح.. وكأنها لم تأكل شيئا منذ مدة طويلة جدا!!.. حسنا.. هذه الثيمة تتكرر كثيرا في أفلام الرعب وتنجح دوما في إخافتنا.. فكيف سيكون الحال لو رأيناها واقعا؟!.

لقد كانت المرة الأولى في حياتي التي أشعر فيها بالمعنى الحقيقي لكلمة (هلع)!!.. أن أفقد إحساسي بجسدي وعقلي فجأة.. فبت لا أملك أي سيطرة على أعصابي.. ودمي نفسه يتحول إلى أدرينالين!!!.. الشعور بآلام المعدة يتصاعد.. الرجفة تبدأ من قدمي وتمتد بسرعة البرق إلى كل جسدي.. لكن هذا لا يكفي.. لا بد من ترجمة مشاعري الداخلية إلى واقع!!!.. لتخرج مني صرخة مدوية جعلتني أهرع ركضا إلى غرفتي وأغلق الباب على نفسي دون تفكير.. ثم أقوم بإنارة الغرفة بالكامل وأنا أتنفس بقوة كناية عن الرعب والذهول.. دون أن أعلم إن كان وجودي في غرفتي سيحميني أصلا من ذلك (الشيء) الموجود في الخارج.

أسمع بعدها أصوات تتحرك خارج الغرفة.. أحدهم يمشي في الصالة ويقترب من غرفتي.. إنه لا يحاول الدخول.. بل يخدش الباب فحسب!!!.. صوت بغيظ مقزز لو خرج من أقرب الناس

لي لصرخت به أن يتوقف.. إن ما أسمعه وأراه يفوق أي خيال.. إنه حقيقي تماما.. لا.. لم تكن هذه إحدى خدم البيت بكل تأكيد.. الأمر واضح.. الفيلا مسكونة بشيء قادم من عالم بغيظ ملعون سماؤه كئيبة تتعالى فيه أصوات الموتى!!!.. هكذا باختصار.. يا إلهي.. إنني مجرد فتاة مدللة لم أجرب الخوف يوما.. فما بالكم أن يكون مصدره غير مادي كما يحدث الآن؟!.

أنظر إلى الساعة المعلقة في غرفتي بقلب تضاعفت نبضاته حتى يكاد ينفجر.. إنها تتجاوز الثالثة فجرا بقليل.. أمسكت بهاتفي وطلبت أرقام الخدم الذين يرقدون جميعا في الجناح الخاص بهم في الدور الأرضي.. كي تأتي إحداهن وتكون إلى جانبي في تلك اللحظات السوداء.. فالصحبة الآدمية أجمل ما يمكن أن أحصل عليه الآن.. لكن.. لا أحد يرد كما هو متوقع.. إنهن نائمات الآن وربما هواتفهن على وضعية الصامت.. أتصل بزوجي.. مرة.. مرتين.. إنه نائم أيضا بطبيعة الحال.. ترى.. هل يستجيب رجال الشرطة لاتصال هاتفي تشكو صاحبته من وجود شبح في بيتها؟!.. لا أعلم.

دقائق قليلة شعرت خلالها بشيء من الأمان في غرفتي.. وكأن الباب يحجب عني كل الأشياء المخيفة التي تحدث في الخارج.. خاصة مع السكون الذي ساد غرفة المعيشة فجأة.. كيف

يتمكن الباب المادي من منع أشياء كهذه من الدخول؟!.. لا أعرف.. فكل ما يحدث غير منطقي.. لكنه يحدث!!!.. ما زلت مترددة بين الاتصال بالشرطة أو انتظار ضوء الشمس الحبيب ليدخل عبر نوافذ البيت ويشعرني بالمزيد من الأمان.. الأفكار نفسها ترتجف في رأسي وأنا أتساءل.. هل هناك وجود فعلي للأشباح؟!.. سؤال قد يبدو سخيفا مملا مكررا للوهلة الأولى.. فالموضوع شبع طرحا وبحثا منذ فجر التاريخ دون إجابة واضحة حتى الآن.. وتلك الظواهر عموما لم تلفت انتباهي يوما.. بل لم أعرف عنها سوى قصة فتاة تدعى (إليسا لام) قرأت عنها ذات يوم في إحدى وسائل التواصل الاجتماعي* وسببت لي رعبا ما بعده رعب.. تستطيعون البحث عن الاسم

---

* قضية (إليسا لام) (Elisa Lam) واحدة من أكثر القضايا غرابة وغموضا وإثارة للخوف بنفس الوقت في السنوات الأخيرة!!!.. وقد نالت شهرة كبيرة في (الولايات المتحدة الأمريكية) عام 2013.. إذ تناولتها وسائل الإعلام آنذاك وظلت حديث الشارع لفترة طويلة.. و(إليسا لام) هذه فتاة كندية الجنسية يبلغ عمرها 21 عاما.. كانت تقيم في فندق (سيشل) (Cecil) بمدينة (لوس أنجلوس) الأمريكية.. حيث اختفت فيه فجأة دون سابق إنذار.. فقام ذووها بإبلاغ الشرطة بعد انقطاع اتصالاتها عنهم.. وطوال أسبوعين.. كثف رجال الشرطة بحثهم عن الفتاة.. وقاموا بنشر صور لها في كل مكان عل أحدهم يساعد في الاستدلال على مكانها.. لكن دون جدوى.. وأثناء عملية البحث.. قامت الشرطة بمراجعة تسجيلات كاميرات المراقبة في الفندق لتتبع خطوات الفتاة ومعرفة آخر ظهور لها.. فوجدوا تسجيلا غريبا جدا.. إذ تبدو فيه (إليسا) وهي تدخل وحدها أحد مصاعد الفندق بطريقة تلقائية.. ثم تضغط على عدد كبير من أزرار المصعد دون سبب واضح.. تماما كما يفعل الأطفال.. ولسبب ما.. ظل باب المصعد مفتوحا لم

يغلق.. ثم بدأت (إليسا) تتصرف بغرابة أكبر أثارت مخاوف عدد كبير ممن شاهدوا الفيديو .. حين راحت تختبئ من شيء ما وهي تلتصق في زاوية المصعد.. لتخرج رأسها بين لحظة وأخرى وهي تنظر إلى الممر الخالي تماما.. قبل أن تعود لتختبيء في مكانها بزاوية المصعد.. وقد كررت الأمر أكثر من مرة.. ثم خرجت أخيرا من المصعد الذي ظل مفتوحا طوال الوقت.. لتقف على الممر وتبدأ فجأة بالتحدث إلى الفراغ بانفعال شديد.. وهي تنحني وتشير بكفيها المفتوحين على آخرهما بطريقة غريبة لا يفعلها الإنسان عادة حين يتحدث!!!.. وكأن مسا شيطانيا أصابها فجأة!!.. وبعد ذلك.. دبّت الحركة في باب المصعد.. فراح يفتح ويغلق بطريقة سريعة مفاجئة.. وكأن المصعد نفسه أصيب بمس شيطاني!!.. بالطبع لم يفهم رجال الشرطة شيئا مما رأوه.. فقاموا بنشر الفيديو عبر وسائل الإعلام.. لعل أحد من معارف الفتاة يشاهده ويفهم ما كانت تفعله في التسجيل.. وقد انتشر الفيديو بقوة بعد ذلك على مواقع (الإنترنت).. بل أنه لا يزال موجودا حاليا على موقع (Youtube) حيث تجاوزت مشاهداته الملايين.. وطوال 5 أيام بعد نشر الفيديو.. لم يستدل رجال الشرطة على شيء.. ولم يتمكنوا من معرفة مصير الفتاة.. إلى أن عثروا على جثتها أخيرا في خزان المياه التابع للفندق.. بعد أن تلقت إدارة الفندق شكاوى عديدة من النزلاء عن تغيير لون وطعم المياه في غرفهم.. فتبين أن (إليسا) صعدت إلى سطح الفندق.. وتسلقت خزان المياه الضخم.. لتدخله وتغلق على نفسها فتحة الخروج.. علما بأن باب السطح المؤدي إلى الخزان مغلق برقم سري لا أحد يعرف كيف توصلت إليه!!.. وتجدر الإشارة أن رجال الشرطة قد عثروا على جثتها عارية تقريبا.. بعد أن قامت بخلع معظم ثيابها وهي في خزان المياه لسبب غير مفهوم.. لتتركها تطفح مع جثتها.. وقد أكد تقرير الطبيب الشرعي أن (إليسا) لم تتعرض لأي اعتداء من أي نوع.. ولم تكن تتعاطى المخدرات أو المشروبات الكحولية كما قد يخطر ببال البعض.. وذكر التقرير أيضا أن الوفاة حدثت بعد وقت قصير من ظهورها في ذلك التسجيل الغريب.. لكن -ورغم كل شيء- اعتبرت الشرطة أن وفاة (إليسا) مجرد حادثة انتحار رغم غرابتها.. وبالطبع كان لا بد من خيال الناس أن يتفجر جراء تلك الحادثة.. فقد أشار البعض إلى أن الفندق نفسه مسكون بالأشباح.. كونه شهد بالفعل -ولأكثر من مرة على مدى تاريخه الطويل- عددا من جرائم القتل وحالات الوفاة الطبيعية.. خاصة وأن الفندق قديم جدا يعود بناؤه إلى عام 1927.. في حين أشار البعض الآخر أن الفتاة كانت تعاني اضطرابا نفسيا كما أشارت هي بنفسها عبر صفحتها في (Facebook).. إلا أن اضطرابها النفسي كان عاديا ليس خارجا عن المألوف.. ولا يمكن أن يكون تفسيرا منطقيا لما فعلته في المصعد قبل وفاتها.. وتجدر الإشارة أنه قد تم عمل فيلما وثائقيا للقصة بأكملها.. وهو متاح في موقع (Youtube) أيضا.. كما قررت إحدى شركات الإنتاج السينمائي مؤخرا تحويل القصة بأكملها إلى فيلم رعب سيحمل اسم (The Bringing).. ويفترض أن يعرض في دور السينما خلال الشهور القادمة.

عبر (الإنترنت) وأعدكم أن قصتها ستثير تساؤلاتكم وخوفكم كثيرا!!.. تماما كما فعلت معي.. عالمة أننا لن نملك الجواب أبدا على تلك التساؤلات.. وأن الإجابة الوحيدة التي نمتلكها تتعلق فقط بقناعاتنا الشخصية.. فبعضنا يربطها بالجن ويؤمن بوجودها من منطلق ديني.. والبعض الآخر يراها محض هراء.

تمر تلك الأفكار السوداء في رأسي وأنا أجلس على فراشي دون أن أتوقف عن الالتفات لحظة واحدة.. و.. لا أعرف كيف مر الوقت.. رغم أنه بدا ثقيلا جاثما على صدري وكأن ساعات الفجر الأولى هذه لن تنتهي أبدا.. إذ انتبهت فجأة أن الساعة تجاوزت الخامسة فجرا بقليل.. وأن ضوء الشمس بدأ يتسلل أخيرا عبر نافذة غرفتي بهدوء ويشعرني تلقائيا بشيء من الطمأنينة.. أدخل على حساب زوجي في وسائل التواصل الاجتماعي.. ما يزال نائما.. أتصل بإحدى الخادمات.. الهاتف يرن.. ويرن.. إنها ترد أخيرا.. فأخبرها أن تصعد إلى غرفتي فورا.

دقائق قليلة قبل أن أسمع صوت طرقات على باب الغرفة والخادمة تسألني باحترام عن سبب اتصالي.. فتحت لها بتوجس.. وتجاوزتها بنظراتي.. لكن.. لا أرى أي شيء غير عادي في الخارج!!.. سألتها صراحة إن كان هناك أحد غيرنا في البيت..

فنظرت إلي مستغربة وبعينين ناعستين جراء استيقاظها للتو.. ثم هزت رأسها نفيا.. بالطبع.. هذه الأشياء لا تظهر لكل الناس.. هل أخبرها بما رأيت؟!.. لا.. لن يغير هذا شيئا.

طلبت منها بعد ذلك أن تأتي ببقية الخدم لتنظيف الطابق الثاني بأكمله على غير المعتاد.. كونهم يقومون دوما بتنظيف البيت ابتداء من الطابق الأسفل.. فالواقع أنني لم أكن أرغب بالبقاء وحيدة.. ولم أجد عذرا أفضل من هذا.. لأترك بعدها باب الغرفة مفتوحا وأذهب للاغتسال استعدادا للخروج.. لن أبقى هنا بعد تلك التجربة المروعة.. سأذهب إلى بيتنا حيث دفء عائلتي.. المكان الآمن الجميل -رغم بساطته- الذي لم يحدث فيه ما يخيفني يوما.

وصلت إلى بيتنا الحبيب والساعة تتجاوز السادسة والربع بقليل.. لأجد والديّ يجلسان في الصالة ويتناولان الإفطار بمشهد حميم يشعرك بالأمان.. فرحبا بي بمزيج من الحرارة والقلق ظنا منهما أنني على خلاف بزوجي المسافر.. لكني ابتسمت رغم الإرهاق الشديد بسبب قلة النوم.. محاولة أن أوحي لهم أن الأمور بخير.. لم أكن أريد إقحامهما بقصة غريبة كهذه.. خاصة مع تقدمهما بالسن.. فصحتهما لم تعد على ما

يرام ولا أريد أن أزيدها سوءا.. هل أخبر أشقائي لاحقا بما حدث؟!.. لا أعلم.. ولا أعرف جدوى ذلك أصلا.. المهم أن والديّ ينتظران مني تفسيرا لزيارتي المفاجئة المبكرة هذه.. و:

- لم أعد أطيق البقاء وحيدة في البيت.. إنني أشعر بشيء من الاكتئاب الذي منعني تماما من النوم ليلة أمس.

سألتني أمي بقلق:

- لماذا يا عزيزتي؟!.. هل نشب خلاف بينك وبين زوجك؟!.

قلت بألم:

- أبدا.. (مساعد) يحبني ويفعل المستحيل ليرضيني.. سوى أنه يسافر كثيرا من أجل عمله كما تعلمان.. كنت أظن أنني سأحتمل غيابه المتكرر.. لكني مخطئة.

يقول أبي بحنان:

- حاولي أن تخرجي وتقضي بعض الوقت مع صديقاتك.. وتذكري دوما أن زوجك إنسان ناجح جدا في حياته.. وهذا النجاح له ثمن يا عزيزتي.

قالها وهو يبتسم ويدعوني لتناول الإفطار معهما أو الذهاب إلى غرفتي للراحة.. على أن نناقش الأمر فيما بعد.. فأومأت برأسي إيجابا.. ثم قبلت جبينهما واتجهت مباشرة إلى غرفتي.. لحسن الحظ أنني أمتلك بعض الثياب هنا.. لقد أنساني الخوف أن أجلب معي أي شيء.. كنت أريد الخروج فحسب.

قمت بارتداء ثياب النوم واستلقيت على السرير علّني أنام قليلا.. أتصل بزوجي مرة أخرى وأخرى دون جدوى.. إنه لن يستيقظ قبل التاسعة ربما.. فأضع الهاتف جانبا وأنظر إلى السقف.. الطمأنينة تغزو قلبي في بيتنا الذي اعتدت على كل ركن فيه.. أفكر.. وأفكر.. إنني محظوظة جدا.. طوال حياتي أُعامَل كأميرة.. لم أعش طوال سنوات عمري مأساة واحدة.. بل وحصلت على زوج ظننت العثور عليه مستحيلا.. كما أنني أعيش حرة بلا وظيفة.. وسأشغل قريبا منصبا مهما في إحدى شركات زوجي كما وعدني.

لكن رغم كل هذا.. أشعر أن الحياة بداخلي كئيبة لا علاقة لها بهذا الواقع السعيد.. موقف واحد صغير لم يتعدّ ثوان قليلة لكنه تسبب بتلويث روحي إلى الأبد!!.. وكأن أحدهم ألقى قطرة من السم في حوض من أسماك الزينة الجميلة.. فقتلها

في لحظات قليلة.. غريب أن أعيش رعب حقيقي واضح لا يحتمل التأويل كهذا.. هل يعقل أن يختلف العالم بأكمله منذ الخليقة بين مصدق ومكذب لوجود الأشباح كي آتي أنا -بكل بساطة- وأراها بنفسي وأتأكد من وجودها؟!!.. من يدري.. هناك مشاهدات كثيرة للأشباح في جميع أنحاء العالم.. يبدو أن بعضها صادق.. لكنها تحدث دوما لحالات فردية.. ولم تحدث أبدا لمجموعة من الشهود.. لهذا تظل دوما محل شك.

ترى.. هل تختار الأشباح أشخاصا بعينهم لتظهر أمامهم؟!.. هل اختارتني لسبب ما؟!.. لا تهمني الإجابة ولا أريد أن أعرفها.. أريد فقط أن أنسى ما رأيته!!.. غريب أن يحذر الناس دوما من الارتباط بشاب أو فتاة لهم ماض سيىء.. ويتجاهلون البيوت!!.. نعم.. يجب أن نتوخى الحذر من البيوت التي قد لها ماضٍ سيىء أيضا!!.. أفكر بكل هذا.. قبل أن يهزمني الإرهاق وأغيب أخيرا وسط أحلامي.

أيقظتني أمي في فترة الظهيرة وهي تدعوني للغداء وتخبرني كذلك أن زوجي اتصل ليسأل عني.. بعد أن اتصل قبلها على هاتفي النقال أكثر من مرة أثناء نومي.. وقد كان قلقا للغاية بسبب اتصالاتي المتكررة به في وقت مبكر للغاية صباح اليوم..

لتخبره أمي أنني نائمة في غرفتي بعد أن قمت بزيارتهم صباح اليوم وأن الأمور بخير.. فشكرت أمي كثيرا.. لتبتسم بحنان وتخرج من غرفتي.

أما أنا فنهضت من فراشي وأمسكت بهاتفي النقال كي أتصل بزوجي.. ليرد وهو يلقي التحية بلطف ويسألني مستغربا عن سبب اتصالاتي المبكرة صباح اليوم.. فأخبرته مباشرة بما حدث بكلمات قلقة متوترة.. بالطبع صعق تماما مما سمع.. ثم تدارك نفسه وقال بحزم رقيق أنني واهمة على الأرجح.. وأن الأمر يتعلق بي وبخيالاتي كوني استيقظت من النوم في وقت متأخر.. وربما يكون الواقع قد اختلط مع أحلامي.. وراح يؤكد لي بعدها أن هناك 3 أجيال تقريبا من عائلته تعاقبت على هذا البيت ولم يرَ أحد شيئا مما أقوله.

أغضبني كلامه كثيرا.. فخاطبته بحدة وأنا أطلب منه بحزم ألا يشكك بعقلي.. لأنني أعرف جيدا ما رأيت ولن يقنعني أبدا بعكس ذلك.. وأخبرته كذلك ألا يتحدث معي بالمنطق.. فما رأيته يتجاوز حدود المنطق بكثير.. إننا نتحدث عن موقف لا يحتمل التأويل.. فتاة مخيفة نحيلة جدا شعرها يغطي ملامحها بالكامل ترتدي ثيابا قذرة.. وتقف ملتصقة بالجدار

رأيتها بكل وضوح في غرفة المعيشة في وقت متأخر من الليل.. وهناك أيضا أصوات تلك الخدوش على باب غرفتي.. كل هذا حدث بعد أن استيقظت وشبعت استيقاظا.. لا يمكن أن تكون أحلامي قد اختلطت بالواقع كما يدّعي.. فراح يرجوني أن أهدأ.. وأن أقضي بقية الأيام في بيت عائلتي إلى حين عودته من السفر.. على أن نتحدث بالأمر لاحقا.. لـم يرُق لي كلامه.. فهو لا يصدقني رغم كل محاولاتي لإقناعه.. هذا واضح من نبرة صوته.. لكني عموما سكت ولم أعقب.. انتظارا لعودته كما يقول.

قضيت بضعة أيام في بيت العائلة لم يحدث فيها شيء يستحق الذكر وقد قررت إخفاء ما حدث عن الجميع.. عالمة أن أحدا لن يصدقني وأنني سأثير قلقهم بلا داعٍ.. قبل أن يعود زوجي من السفر أخيرا.. حيث كان سائقه الخاص باستقباله في المطار.. ليأتي مباشرة للقائي.. فألقى على والديّ التحية باحترام شديد.. ثم ذهب معي إلى غرفتي محاولا إقناعي للعودة إلى بيت الزوجية الذي بت أخشاه أكثر من أي شيء في حياتي.. فكررت له بحدة ما قلته سابقا:



- لا تضيع وقتك في إقناعي بكلامك.. لست مجنونة.. ولم أشهد تلك الأشياء في حياتي إلا حين تزوجتك وانتقلت لأعيش في بيت عائلتك.. هذا البيت مسكون بالأشباح.. لا تجادلني في ذلك أرجوك.. لن أصدقك وأكذب ما رأيت.

ابتسم وهو يقول برفق:

- أنا لا أشكك أبدا بعقلك يا عزيزتي.. لكن أكثر العقول منطقية قد تخدع أصحابها أحيانا.. خاصة في الليل حين يكون المرء وحيدا في بيت كبير كبيتنا!!.. ثم ماذا عني أنا؟!.. لقد عشت في هذا البيت طوال 34 عاما هي كل حياتي.. ولم أرَ شيئا مما تقولين.. ماذا عن الخدم أيضا؟!.. فبعضهم يعمل عندنا منذ سنوات طويلة.. وجميعهم لم يروا ما يريب.

قلت بعصبية:

- من الواضح إذا أنني وحدي أرى تلك الأشياء لسبب ما!!.

كنت أتوقع منه الغضب والانفعال كوني أتحدث معه بهذه الحدة لأول مرة وبعد فترة قصيرة نسبيا من زواجنا.. لكني

فوجئت به يصمت للحظات.. ثم يبتسم بلطف وهو يربت على كتفي مطمئنا ليقول:

- حسنا.. نحن نمتلك فيلا أخرى قديمة في منطقة (البدع).. لكنها مهجورة منذ زمن وتحتاج بعض أعمال الصيانة.. سننتقل إليها خلال أسابيع.. أعدك بذلك.. فمسألة بناء الفيلا الجديدة ستستغرق شهورا كما تعلمين.

قلت برجاء:

- ألا تملك عائلتك عقارات أخرى جاهزة للسكن؟!.. ماذا عن الانتقال مؤقتا إلى شاليه العائلة؟!.. أو حتى الإقامة في فندق في أسوأ الأحوال؟!.

رد مبتسما:

- عزيزتي.. الأمور ليست بهذه البساطة.. تجارة عائلتنا ليست متعلقة بامتلاك العقارات كما تعلمين.. بل بالأعمال الإنشائية.. أما الانتقال لمكان آخر فهو غير منطقي صراحة.. لا يعقل أن نتجشم عناء الانتقال إلى فندق.. ثم نعود بعدها بأسابيع قليلة وننتقل مرة أخرى للسكن في فيلا (البدع)!!!.. أما بخصوص الشاليه فهو

بعيد عن مقر الشركة أولا.. ثم أنه ليس ملكي وحدي.. بل ملك أشقائي أيضا الذين يستخدمونه باستمرار.. المعذرة.. فأنا لم أشعر يوما بأهمية امتلاك شاليه خاص بي.. لكني سأشتري واحدا إن كنت ترغبين بذلك.

قلت بعصبية:

- افهمني.. لا أريد شاليها.. أريد الخروج من هذا البيت اللعين فحسب.. لماذا لا نسكن هنا عند أبي إلى أن تجهز فيلا (البدع)؟!.

ابتسم بحنان غريب غير مبال إطلاقا بعصبيتي.. ليقول:

- مستحيل يا عزيزتي.. أنا أرفض هذا.. فبيتكم صغير أولا.. وشقيقك يعيش فيه مع زوجته وأطفاله.. سيكون الأمر محرجا لهم ولنا.. لن تكون هناك أي خصوصية للطرفين.

قالها وهو يمسك هاتفه النقال ليطلب رقما ما.. ثم يأمر الطرف الآخر -الذي اتضح أنه أحد موظفيه- أن يبدأ من الآن بتجهيز فيلا (البدع) هذه.. على أن تكون جاهزة خلال أسابيع قليلة.. لينهي المكالمة وهو ينظر إلي مبتسما منتظرا مني ردة فعل..

فعضضت شفتي قهرا كوني غير مقتنعة بهذا الحل.. هل أطلب منه أن أبقى أنا على الأقل في بيت أبي ويفعل هو ما يشاء؟!.. طلبت ذلك فعليا.. لكنه هز رأسه نفيا بحزن وهو يخبرني أنه لا يقبل أبدا أن يعيش كل منا في مكان مختلف.. فأنا زوجته في نهاية الأمر.. ومن حقه أن أكون معه أثناء فترات وجوده في (الكويت) على الأقل.. لكنه لا يمانع أن أنتقل للإقامة في بيت عائلتي -إن أردت- أثناء سفره و.. استسلمت له أخيرا.. نعم.. فلا أنكر أن شعورا لا بأس به بالارتياح والأمان انتابني وأنا أكتشف يوما بعد يوم أن زوجي شاب رائع بالفعل.. إنه طيب للغاية.. حنون إلى درجة غير معقولة.. ويتعامل معي بطولة بال لم أعهدها عند أي رجل.. حتى أنني شعرت بالخجل لطريقة كلامي معه.. فاحتضنته وأنا أشكره على كل ما يفعله من أجلي.. لتتسع ابتسامته ممتنا.

عدت معه إلى بيت الزوجية أخيرا.. غير مصدقة أنني منذ أيام قليلة فحسب كنت أقسم أنني لن أدخله مرة أخرى.. أتذكر أنني توقفت عند الباب طويلا.. وزوجي يمسك بيدي ويخبرني مشجعا أن الأمور ستكون على ما يرام.. لأدخل بتوجس تبدد قليلا مع الإضاءة التي لم تترك ركنا مظلما قد يثري خيالاتي..

لكن هذا لم يكن كافيا.. إذ ظللت ألتفت يمينا ويسارا طوال الوقت خشية أن تظهر لي تلك الأشياء المخيفة.. وهذا طبيعي للغاية.. فالعدو الأكبر للإنسان أفكاره الذاتية التي تجعل القلق ككرة ثلج تتدحرج وتكبر في رأسه إلى أن تحيل حياته جحيما.

ولتغيير حالتي المزاجية هذه.. خرجنا معا إلى مجمع (360) حيث تناولنا العشاء هناك وقضينا بعض الوقت في التسوق.. قبل أن نعود إلى البيت لأجلس في غرفتي أشاهد التلفاز وقد عجزت عن الاندماج مع أي قناة.. على عكس زوجي الذي ظل يعبث في هاتفه تارة.. ويحاول اختلاق أي موضوع للتحدث إلي تارة أخرى.. لكني ظللت صامتة لا أستجيب.. فالقلق والترقب كانا يسيطران علي.. إلى أن حان موعد النوم أخيرا.. ليحتضنني وهو يخبرني أن الأمور ستكون بخير.. وأنه سيكون بقربي طوال فترة نومي كي يشعرني بالأمان.. فأبتسم دون اقتناع آملة أن تمر الأيام سريعا كي ننتقل إلى فيلا (البدع) كما وعدني.

أتقلب في فراشي قليلا.. ثم أفتح عيني بين الحين والآخر لأتأكد أن لا أحد في الغرفة غيرنا.. إضاءة النوم كافية ولا تترك أي ركن مظلم لحسن الحظ.. هذا جيد.. حركة زوجي تسكن أخيرا

بعد أن استسلم للنوم.. أشعر أنني سأنام قريبا أيضا.. إنني في تلك المرحلة الغامضة بين النوم واليقظة.. سأغيب عن الواقع بعد قليل.. مهلا.. لا أظن أنني دخلت عالم الأحلام بعد.. فمن أين يأتي ذلك الصوت الغريب؟!.. صوت بكاء امرأة يقترب من النحيب.. هناك أيضا بعض الكلمات الهامسة التي لا تصل مفرداتها إلى مسامعي!!!.

وضعت يدي على رأسي ورحت أهزه بطريقة قد تبدو مضحكة لمن يراني.. لا.. أنا لا أحلم.. إنني مستيقظة جدا.. هذا الصوت يأتي من عالم الواقع بكل تأكيد.. أو من عالم الأشباح؟!!.. أنهض من فراشي برعب وأنا ألتفت حولي دون أن أجد أحدا!!.. البكاء ما يزال يملأ كل أجواء الغرفة فيستحيل تحديد مصدره.. ألتفت بذعر لأرى زوجي نائما بسلام.. أهزه بقوة وأخبره أن هناك أحدا معنا في الغرفة.. فيستيقظ بسرعة وهو يحك عينيه ويلتفت حوله.. أطلب منه بعصبية أن ينصت السمع.. لكنه ينظر إلي بأسف ويؤكد أنه لا يسمع شيئا!!.

طرأت بذهني فجأة فكرة قد تكون مُجدية.. فنهضت بلهفة وأمسكت هاتفي النقال.. ثم قمت بتسجيل صوت البكاء هذا كي أقنعه بما يصل إلى مسامعي.. لكن -وكما قد يتوقع البعض-

حين أشغلت التسجيل.. لم أسمع سوى الصمت المزعج إن صح التعبير.. فنظر إلي مبتسما بأسف.. حسنا.. الصورة واضحة الآن ولا تقبل الشك.. إنني الوحيدة التي تسمع ذلك النحيب المخيف الذي استمر لحظات قليلة قبل أن يتوقف.. والوحيدة التي تكاد تجن وهي تشهد شيئا مخيفا خارج نطاق الماديات!!.

لا أعرف كيف مرت تلك الليلة.. لكنها عموما كانت سوداء بكل المقاييس.. إذ نمت ملتصقة بزوجي ولم أتركه لحظة واحدة رغم توقف صوت النحيب.. في حين احتواني بذراعه وهو يطلب مني أن أهدأ وأن أحاول النوم.. مع الوعد أنه سيبحث عن حل غدا.. ولا أعرف في الواقع كيف سيجد حلا لطرد الأشباح التي يبدو أنها لا تسكن في بيته.. بل في رأسي!!.. الإرهاق يجبرني على النوم.. لكنه نوم مزعج مليء بالكوابيس.. فتارة أرى نفسي في كهف مظلم والوحوش تقترب مني لتلتهمني.. وتارة أخرى أجد نفسي وسط قبيلة بدائية يقترب أفرادها مني بشغف لالتهامي أيضا.. هكذا هي الكوابيس.. أن تكون ضعيفا واهنا لا أمل لك بالنجاة أمام خطر محدق!!.

في صباح اليوم التالي.. استيقظت بعينين منتفختين وبمزاج سيىء جدا.. في حين بدا زوجي أفضل حالا كونه لا يصدق

حرفا مما أخبره به أصلا.. فاحتضنني بحنان وطلب مني أن أغتسل وأرتدي شيئا لائقا كي أذهب معه إلى الشركة لأتعرف على طبيعة العمل هناك.. ومن ثم أختار المكان الذي يناسبني للبدء بأسرع وقت كما وعدني سابقا.. فالفراغ الذي أعيشه ليس مفيدا لي على حد قوله.

قلت بقلق وانفعال واضحين غير مكترثة بكلامه:

- لا أريد العمل الآن.. فهو ليس حلا لما أعيشه وأواجهه في هذا البيت؟!.. ماذا عن صوت البكاء والنحيب؟!.. ماذا عن تلك الفتاة؟!.. ماذا لو ظهرت لي مرة أخرى؟!.

اقشعر جسدي وأنا أتذكرها.. فوضع راحة يده على خدي وهو يقول مبتسما:

- إنه بيت عائلتي يا حبيبتي وليس قصرا مهجورا في منطقة منعزلة.. أنت في منطقة حيوية.. والسوق المركزي على بعد خطوات من هنا.. ثم إنها بضعة أسابيع فحسب قبل أن ننتقل للفيلا الأخرى.. وأنا لن أتركك لوحدك أبدا.. تستطيعين السفر معي من الآن فصاعدا -إن أردتِ- لإتمام صفقاتي التجارية.

نظرت إليه بصمت وأنا عاجزة عن الرد أمام كل هذا اللطف.. ثم استطرد مازحا:

- لكن علي أن أحذرك.. ستكونين وحيدة معظم الوقت أثناء السفر.. إلا لو رغبت بحضور اجتماعات العمل الطويلة والمملة.

لم يكن كلامه كافيا للأسف.. فبصراحة.. لم يعد وجوده معي يشعرني بالأمان.. خاصة بعد أن سمعت صوت البكاء والنحيب وهو نائم بجانبي في العسل!!.. المشكلة بأكملها تكمن في هذا البيت.. يجب أن نخرج منه في أقرب وقت ممكن.. والأسوء أن الأحداث كانت تتسارع بشكل غريب لا يسمح حتى بالتفكير.. ففي مساء نفس اليوم.. وأثناء وجود زوجي في الحمام.. ظهرت لي تلك الفتاة المخيفة مرة أخرى.. وهذه المرة كان المشهد يفوق أقسى مشاهد الرعب في (هوليوود)!!!.. أتذكر أنني كنت أقوم وقتها بتسريح شعري أمام المرآة.. فنقلت بصري بشرود إلى أدوات التجميل.. لأشعر فجأة أن شيئا غريبا يحدث.. وأن المرآة لا تعطي انعكاسي.. التفت إليها بسرعة آملة أن أكون مخطئة.. لكني وجدت بالمقابل الفتاة ذاتها وهي تحدق بي!!.. فكانت هذه المرة الأولى التي أرى

وجهها.. وليتني لم أره.. إذ كان شاحبا للغاية.. وكأنها جثة في مراحل تحللها النهائية حيث تبرز العظام على الوجنتين.. إنه مشهد مخلد في تاريخ أفلام الرعب.. لكني أعيشه واقعا لحظة بلحظة!!.. و.. بالطبع خرجت مني صرخة مدوية.. لأفقد بعدها وعيي لحسن الحظ!!.. ففقدان الوعي في ظروف كهذه نعمة حقيقية!!.

استيقظت بعد مدة غير معلومة لأجد نفسي في السرير.. وزوجي يجلس بجانبي.. في حين يقف رجل يرتدي بذلة أنيقة وبجانبه حقيبة.. إنه طبيب كما يبدو.. الفارق أنه لم يكن طبيبا عاديا.. بل طبيب نفسي!!!.. هذا ما قاله زوجي صراحة وبقلق واضح.. لكن.. لماذا لماذا أشعر بالهدوء والسكينة؟!.. يفترض أن أصرخ رعبا.. ثم أبكي وأطلب منهم إخراجي من هذا البيت الملعون كوني لم أجد الوقت لأعبر عن لحظات الرعب التي عشتها حتى الآن.. ففقدان الوعي وحده لا يكفي أبدا.. رغم أنها المرة الأولى في حياتي التي أفقد فيها وعيي بالمناسبة.

وكأن الطبيب النفسي قرأ أفكاري.. إذ قال مبتسما:

- لقد حقنتك بمهدىء قوي المفعول.. وهذا سبب خمولك الشديد.. يجب أن ترتاحي قليلا.

نظرت إلى زوجي مستفهمة.. ليقول متعاطفا:

- لقد كنتُ في الحمام حين سمعتك تصرخين وتقعين على الأرض فاقدة الوعي!!!.. فهرعت إليك وحاولت إسعافك دون جدوى.. وبسبب ما قلته لي سابقا عن الأصوات التي تصل إلى مسامعك.. وعن تلك الفتاة التي ظهرت لك.. توقعت أنك تعانين مشكلة نفسية ما.. فأتيت بطبيب نفسي.

الطبيب يبتسم بدوره وهو يقول:

- ربما يجدر بك زيارتي في عيادتي.. سأستمع إليك هناك.. وربما نصل معا إلى جذور المشكلة ونستطيع علاجها.

لم أرد على كلامه.. بل سكتّ وأنا أنظر إلى الفراغ بشيء من الحنق.. ترى.. هل يعقل أن يكون زوجي والطبيب محقين؟!.. أو.. أن زوجي نفسه يمارس لعبة ما؟!.. لا أعرف لماذا طرأ ذلك الخاطر الغريب في ذهني.. لكن ما الذي سيستفيده من كل هذا؟!.. لم أجد الوقت للتفكير.. إذ أغمضت عيني رغما

عن أنفي بسبب الحقنة.. وقبل أن أغيب عن الوجود.. قلت بوهن:

- لا أريد البقاء في هذا البيت.. لا أريد البقاء في هذا البـ...

استيقظت صباح اليوم التالي لأجد أنني وحيدة في الغرفة.. فالتفت حولي بذعر.. ثم أمسكت بهاتفي النقال لأجد رسالة لطيفة من زوجي يخبرني فيها أنه يحبني.. وقد ذهب إلى الشركة على أن يعود ظهرا لتناول الغداء معي.. لم أهتم كثيرا لرسالته.. وهذا طبيعي بعد كل ما حدث لي.. فنهضت لأغتسل وأستبدل ثيابي دون أن أتوقف عن الالتفات حولي لحظة واحدة.. ثم ناديت إحدى الخادمات إلى غرفتي.. وطلبت منها وضع بعض ثيابي مع احتياجاتي الأساسية في حقيبة.. كي أذهب للإقامة مؤقتا في بيت عائلتي.. سأفعل ذلك رغما عن زوجي.. وليغضب كما يشاء.. لن أعيش أجواء الرعب هذه مرة أخرى.

نزلت بعدها إلى الطابق الأرضي وجلست في غرفة المعيشة الضخمة أنتظر أن تأتي الخادمة بالحقيبة.. لأجد طعام الإفطار على الطاولة على هيئة بوفيه صغير كالعادة.. لا يمكن أن

أفوت وجبة الإفطار مهما كانت الظروف.. هذا جزء من نظام غذائي الصارم للمحافظة على رشاقتي.. فاتجهت بطريقة آلية وبذهن مشوش لآخذ طبقا.. ثم رحت أملؤه بالجبن والبيض وكل ما يؤكل للإفطار.. لأبدأ بالأكل ببطء وأنا أنظر حولي.. الحق أن الطعام هنا رائع ومختلف.. إذ تجد كل الأصناف التي تخطر ببالك.. دعكم من المكان الذي يشع نظافة.. هذا متوقع لعائلة ثرية كهذه تملأ البيت بخمس خادمات كل منهن لها مهام محددة.. مع السائق الذي يشتري احتياجاتنا أولا بأول.. رغم أن لا أحد يسكن سواي مع زوجي كما علمتم.

الخادمة تأتي بالحقيبة وتخبرني إن كان هناك شيء آخر أرغب به.. فأسألها بحذر إن كانوا يسمعون أو يرون أي شيء غير عادي في هذا البيت.. لكنها تهز رأسها نفيا بأدب.. مؤكد أنها تسخر في أعماقها من هذه الحمقاء -أنا- التي تطرح سؤالا غريبا كهذا.. فأومأت برأسي متفهمة وطلبت منها أن تعود إلى عملها.. قبل أن أغوص في عالمي الذاتي مرة أخرى.. وأستذكر حقيقة أدركها جيدا عن نفسي.. فأنا لست واقعية مادية كصخرة صماء.. ولست جامحة بخيالي حتى لأتصور أن كل بيت قديم يحوي مصاص دماء أو روحا شريرة.. بل أنا

عقلانية جدا!!.. لذا علي التفكير من هذا المنطلق وألا أنساق لكلام الطبيب وزوجي.. فهما لا يعرفاني كما أعرف نفسي.. من الواضح أنني أتعرض -وحدي- لتلك المواقف المخيفة في هذا البيت.. ولا يتعرض لها زوجي أو أحد من الخدم مثلا.. رغم أنني فتاة مستقرة عاطفيا ولا أعاني أي ضغوط نفسية.. بل ولم أمر بأي مصاعب أو أزمات في حياتي كما ذكرت سابقا.

أحاول أن أفكر بطريقة عقلانية لأعرف (ما) أو (من) يقف خلف تلك الأحداث.. وأجد أن زوجي أول ما يطرأ في ذهني!!.. نعم.. أعترف أنني بدأت أشعر بشيء من النفور تجاهه.. فلا يمكن أن يوجد زوج في العالم بهذا اللطف.. أقولها صراحة.. كما أنني أرتاب دوما -لسبب ما- من الأشخاص الودودين بصورة مبالغ بها!!.. لكن.. حتى لو كانت ظنوني في محلها.. وحتى لو كان هو خلف كل ما يحدث دون أن أعرف الدافع بعد.. كيف يفعل ما يفعله أصلا؟!.. كيف يجعل تلك الفتاة تظهر لي في المرآة؟!.. ماذا عن صوت البكاء؟!.. لقد كان يملأ الغرفة بأكملها ولا يأتي من مصدر واحد.. لا يمكن أن تكون هذه أفعال بشر!!.. أو.. ربما وضع زوجي شيئا في طعامي أو شرابي ليسبب لي تلك الأوهام؟!.. هذا السؤال يصطدم بالدافع..

فلماذا سيفعل ذلك أصلا؟!.. إنه رجل حازم في حياته يقضي جل وقته في عمله.. لن يمارس تلك الألعاب الصبيانية معي.. ولو أراد التخلص مني لقرر الطلاق.. أعلم أن هناك من يقتل زوجته للحصول على مبلغ التأمين على حياتها.. لكن لا أعتقد أن هذا ينطبق علينا.. فزوجي ثري جدا لن يغير مبلغ التأمين شيئا من وضعه المالي والاجتماعي.

أطرد هذا الاحتمال من ذهني.. وأحاول التسليم أن كل ما رأيته وسمعته حقيقي وغير خاضع للتأويل.. ثم أتساءل بحيرة شديدة.. فلو سلمنا أن الأشباح حقيقية وأن البيت مسكون بها؟!.. لماذا أنا تحديدا التي رأيتها؟!.. هل لأنني الفتاة الغريبة الوحيدة التي دخلت هذا البيت كون جميع أشقاء وشقيقات زوجي تزوجوا من محيط العائلة؟!.. ماذا عن الخدم؟!.. إنهم أغراب أيضا.. لماذا لا يظهر لهم أي شيء مخيف؟!.. لا أعلم.. لكن يقال أن البيت المسكون بالأشباح يحاول إخبارنا بشيء ما.. لهذا ترتبط الأشباح دوما بمكان ولا تخرج منه أبدا!!.. توقفت عن مضغ الطعام وأنا أفكر بهذا الخاطر.

أنظر حولي بارتياب وكأنني أبحث عن إجابات على تساؤلاتي.. أشعر أن البيت يحمل صدى.. هذا الصدى موجود في كل

مكان هنا.. حتى في الهواء نفسه.. بل وحتى بين الجدران.. وكأن هناك شرا لم يمت بعد!!!.. الرهبة تتملكني وأنا ما زلت أنظر إلى كل ركن في غرفة المعيشة الضخمة.. ثم.. توقف بصري فجأة عند تلك اللوحة.. لوحة جد زوجي التي تحتل مساحة كبيرة من الحائط والتي ذكرتها في بداية قصتي.. هناك أمر غريب بشأنها لم يلفت انتباهي سوى الآن.. أو أن الأمر لا يتجاوز الارتياب المبالغ به فحسب؟!.. لا ضرر من التأكد على الأقل.

التفت لأنادي الخدم.. 3 منهن يأتين ويقفن أمامي احتراما.. لآمرهن بصرامة أن يقمن بإنزال اللوحة من على الحائط.. فنظرن إلي باستغراب للحظة.. ثم اشتعل فيهن النشاط فجأة.. ليتعاونّ على إنزالها ووضعها على الأرض.. أنظر إلى الحائط مباشرة حيث كانت اللوحة معلقة.. لا يوجد شيء.. هذا مؤكد أيتها الحمقاء.. لن أجد خزانة بقفل سري تحوي وثائق عائلية خطيرة.. هذا يحدث في القصص فقط.. لكن.. ابتسمت في قرارة نفسي حين تذكرت أنني أعيش حاليا ما يفوق القصص الخيالية غرابة بكثير!!.

نقلت بصري إلى اللوحة واقتربت لأضع إصبعي على الألوان.. إنها جافة منذ زمن طويل كما هو متوقع.. لكن.. يبقى السؤال المهم الذي أثار فضولي وجعلني أطلب من الخدم إنزال اللوحة من الأساس.. لماذا يحتل جد زوجي نصف اللوحة فقط؟!.. في حين نجد أن النصف الآخر بأكمله لبيت!!!.. لا معنى لهذا.. أنا لم أرَ أي لوحة كهذه من قبل.. فغالبا ما يتم رسم الإنسان في منتصف اللوحة.. أما هنا فالأمر يوحي وكأن شخصا ما كان يقف بجانب الجد.. لكنهم استعانوا بمن يرسم البيت على ذلك الشخص ويلغي وجوده!!.

أدقق النظر لملاحظة أي فروقات في الألوان.. فالرسم الأحدث ستبدو ألوانه أكثر نقاء بكل تأكيد.. لا.. لا أستطيع التمييز.. أخرجت هاتفي النقال واتصلت بزوجي لأطرح عليه تساؤلاتي.. وقد شعرت فيما بعد أنه تصرف غبي للغاية.. لأنه كان يتوجب علي مواجهته كي أنتبه لو أصيب بأي ارتباك أو حاول المراوغة أو الكذب.. المهم أنه استغرب اهتمامي باللوحة.. ثم قال بطريقته الحنون -التي بت أكرهها- أن اللوحة رسمت هكذا في حقبة ما قبل النفط.. حين كان جده في إحدى رحلاته التجارية إلى (الهند).. حيث استقدم رساما وطلب منه أن

يرسمه على النصف الأيسر من اللوحة فقط.. ويرسم بالمقابل بيت العائلة القديم على النصف الآخر.

أنهيت المكالمة غير مقتنعة بكلامه.. خاصة وأنني لم أعد أثق به أصلا لسبب أجهله أنا نفسي.. شعور قوي ينتابني أن السر بأكمله يكمن في اللوحة.. لكني في النهاية لم أصل إلى شيء.. لأخرج متجهة إلى بيت العائلة.. على أمل أن أفكر هناك بصورة أفضل وأبحث عن إجابات على تساؤلاتي.

ما إن وصلت.. حتى ألقيت تحية سريعة على والديّ.. وأخبرتهما بكلمات مرحة أن زوجي سيسافر قريبا كالعادة لظروف عمله.. وأنني أشعر بالوحدة والوحشة لكبر حجم البيت.. لم يكن الأمر عسيرا لإقناعهم لحسن الحظ.. فهم باتوا يعرفون جيدا طبيعة حياة (مساعد).. وفي أي مرة أخبرهم فيها أنه سيسافر قريبا أكون محقة.. إذ يستحيل تقريبا أن يبقى في (الكويت) أسبوعين متصلين.. وقد اتصلت به بعد ذلك وأخبرته أنني سأبقى عند والديّ ولن أعود أبدا إلى ذلك البيت.. بانتظار أن تجهز فيلا (البدع) كما وعدني.. فحاول مناقشتي بالأمر.. لكني كنت صارمة جدا.. فغمغم باستسلام أن لا بأس.. كما طلبت منه ألا يخبر والديّ إطلاقا بما حدث

في اليومين الماضيين.. لا أريد أن أسبب لهما أي قلق وهما في هذه السن.

بضعة أيام قضيتها في بيت العائلة الحبيب حيث كنت ألتقي خلالها بـ (مساعد) بصورة شبه يومية.. دون أن يعلم والداي أنه موجود في (الكويت) أصلا كي لا تثير إقامتي عندهم أي تساؤلات.. فأقضي معه بعض الوقت دون أن أشعره بنفوري تجاهه مؤخرا.. وأن إعجابي الشديد به تناقص كثيرا.. إلى أن حان موعد سفره -كالعادة- إلى إحدى الدول الأوروبية.. فقررت البقاء عند عائلتي وعدم السفر معه كما اقترح سابقا.. أريد أن أفكر بهدوء.. لا يمكن أن أترك الأمور تمر بهذه البساطة حتى لو انتقلت لأعيش مع زوجي في مكان آخر.. فما رأيته -حتى الآن- ترك شروخا في روحي ستظل قائمة إلى الأبد.. وأحاطني بعلامات استفهام كثيرة سأجن إذا لم أتمكن من الإجابة عليها.. أحاول أن ألخص كل ما حدث.. الفتاة المخيفة.. أصوات البكاء والنحيب والكلمات الهامسة.. كيفية بقاء بيت عائلة زوجي قائما أكثر من 40 عاما دون أن يلحظ أحد أي شيء غير عادي.. ثم آتي أنا لأكتشف خلال شهور قليلة أنه مسكون بالأشباح وأرى ما رأيت من أهوال.

مكتبة
t.me/t_pdf

أفكر أيضا في اللوحة.. وأتساءل إن كانت تحوي لغزا بالفعل.. أم أنني مرتابة فقط بسبب الأجواء المخيفة التي عشتها فرحت أبحث عن إجابات بأي طريقة؟!.. تساؤلات كثيرة لم تقدني إلى شيء.. وظننتها ستظل عالقة دون إجابة.. إلى أن جاءت تلك اللحظة.. لحظة الإلهام التي جعلتني أفكر بخطوة لم تخطر ببالي من قبل.. أشعر أن الأفكار الذكية تظل مجنونة إلى أن ينفذها أحدهم!!.

فبعد أيام قليلة من سفر (مساعد).. كنت مستلقية على سريري في غرفتي الحبيبة.. أمسك بـ(الريموت كنترول) وأمر على قنوات التلفاز أبحث عن شيء أشاهده.. حين وقعت عيناي بالصدفة على ما تبثه إحدى القنوات الوثائقية الشهيرة.. برنامج خاص عن اللوحات التاريخية!!!.. حيث يتحدث فيه أحد المختصين عن الطرق التي يتم استخدامها للتمييز بين اللوحات الأصلية والمزورة.. وعن ما يفعله بعض اللصوص حين يستقدمون فنانين ليقوموا برسم لوحات مزيفة -وبألوان قابلة للإزالة- على اللوحات التاريخية المسروقة كي تسهل عملية تهريبها.. وذكر أن المختصين يستخدمون الأشعة

السينية* لكشف هذا النوع من الاحتيال.

اتسعت عيناي تدريجيا وأنا أشاهد البرنامج وأتذكر اللوحة إياها.. السؤال يتكرر في ذهني.. أليس من المنطقي أن يكون الجد في منتصف اللوحة وخلفه البيت؟!.. لماذا يقف في الجانب الأيسر فقط؟!.. هل قام أحدهم برسم البيت لإخفاء شخص آخر كان يقف بجانب الجد؟!.. لن أعرف الإجابة إلا لو تأكدت بنفسي.. نعم.. يجب أن أُخضع اللوحة للأشعة السينية.. تماما كما شاهدت في البرنامج.. لا أعرف إن كانت هذه الطريقة ستنجح.. لكن لا بد من المحاولة.. لدي متسع من الوقت لذلك.. خاصة وأن زوجي لن يعود قبل أسبوع من الآن.. سأنفذ خطتي وسأعرف حينها إن كنت حمقاء جدا أو ذكية جدا!!.

---

* الأشعة السينية أو (أشعة إكس) (X rays) اكتشفها العالم الألماني (ويليام رونتجن) (Wilhelm Rontgen) عام 1895 ونال عنها جائزة نوبل في الفيزياء عام 1901.. وتستخدم الأشعة السينية بشكل واسع في العديد من المجالات التقنية والعلمية التي لم تعد تخفى علينا.. فهي تستخدم في المستشفيات والعيادات الطبية للكشف عن الأسنان وكسور العظام.. ولتحديد مواقع الأجسام الصلبة في الجسم.. مثل الشظايا أو الرصاص.. إلخ.. كما تستخدم في مجال الأمن من خلال مراقبة حقائب المسافرين في المطارات بحثا عن أي ممنوعات.. أما في مجال الفن فتستخدم للتعرف على أساليب الرسامين والتمييز بين اللوحات الحقيقية والمزيفة كما هو الحال في قصتنا هذه.

أتذكر أنني أغلقت التلفاز وجلست أفكر بعض الوقت.. لأحسم أمري أخيرا.. فاتصلت ليلتها بإحدى قريباتي وهي طبيبة -بالمناسبة- تعمل بمستشفى (....) الحكومي.. حيث أخبرتها بهواجسي وشكوكي بخصوص اللوحة.. وإن كان بإمكاننا استخدام الأشعة السينية لاكتشاف إن كان هناك ما تخفيه.. فسألتني عن سر طلبي الغريب هذا.. لكني طلبت منها -برجاء- أن تعفيني من الإجابة.. وأن الأمر يتعلق بمتاعب عديدة أعانيها حاليا وقد يكمن حلها في اللوحة!!!.. حاوَلت أن تفهم ما أعنيه.. لكني كنت حازمة برفضي.. لأني لا أملك سببا واضحا أصلا.. فالأمر بأكمله عبارة عن شكوك قد لا تعني أي شيء!!.. المهم أنها وافقت في النهاية مشكورة بعد شيء من الإلحاح.. ثم طلبت مني زيارتها في المستشفى مساء الغد في ساعة محددة كونها أقل الأوقات ازدحاما على حد قولها.

في اليوم التالي.. ذهبت إلى بيت زوجي.. وطلبت من الخدم انتزاع اللوحة ولفها بورق الصحف.. ومن ثم وضعها في سيارة نقل صغيرة قمت باستئجارها مع سائقها.. فامتثلوا لأوامري وعيونهم تطرح عشرات التساؤلات.. لأنطلق بعدها بسيارتي إلى المستشفى وتتبعني سيارة النقل.. أفكر بما أفعله.. أحيانا

تتصرف بغرابة يأباها العقل.. لكن قلبك يمارس عنادا غريبا ويطلب منك الاستمرار.. وكأن التواصل بين عقلك وقلبك توقف لسبب ما!!!.. أتصل بقريبتي وأخبرها أنني في طريقي إليها.. لتخبرني بدورها أنها بانتظاري.. وأن علي تجنّب مدخل الزوار.. والتوجه إلى المدخل الخاص بإدخال المؤن.. حيث سأجد عاملين من رجال التنظيف في انتظاري ليقوما بنقل اللوحة إلى غرفة الأشعة.. فنفذت تعليماتها حرفيا آملة أن ما أفعله هذا سيأتي بنتيجة.

و.. حال وصولنا.. قام العاملان بحمل اللوحة وأخذاها إلى الداخل.. أما أنا فطلبت من السائق أن ينتظر عودتي.. لأدخل المستشفى بدوري متجهة إلى غرفة الأشعة وأجد قريبتي بانتظاري.. حيث استقبلتني بحماس بالغ وهي تلومني وتلوم نفسها على الانقطاع وعدم التواصل.. ومن هذا الهراء الذي نردده دوما.. فأبتسم وأتعذر بمشاغل الحياة.. وأشكرها كثيرا بنفس الوقت على مساعدتها لي.

لتبدأ بعدها عملها.. وتطلب برجاء من ممرض آسيوي الجنسية أن يضع اللوحة خلف جهاز الأشعة بمساعدة العاملين.. يبتسم الممرض مستغربا وهو ينفذ الأمر.. أشعر بتوتر غير مفهوم

وأنا أترقب ما سيحدث.. سأعرف الحقيقة بعد دقائق.. أنتظر على أحر من الجمر وقريبتي تتحدث بمواضيع مختلفة قتلا للوقت وانتظارا لإظهار الأشعة.. فأومئ برأسي إيجابا دون أن أسمع حرفا مما تقول.. ثم.. الممرض يضع أمامي صورة الأشعة وهو لا يعرف ما قد يعنيه هذا الاكتشاف.. أنظر إلى الصورة بذهول.. وقريبتي تسألني عن سبب استغرابي.. فأغمغم أنني لم أتوقع أبدا أن يكون استنتاجي دقيقا إلى هذا الحد!!!.

نعم.. إنني أنظر إلى صورة الأشعة بالأسود والأبيض.. وأرى فيها جد زوجي حيث يقف إلى جانب بيت قديم كما علمنا.. لكن.. البيت القديم هذا لم يعد موجودا.. إنه ليس حقيقيا إذا!!.. فهناك من رسمه ليخفي شيئا آخر في اللوحة.. تماما كما توقعت.. إنني أرى في الصورة السلبية فتاة يفترض أن تكون هي التي تقف بجانب الجد!!!.. هذا لا يصدق.. لا يصدق!!.. هذا كافٍ جدا لأدرك أن هناك لغزا يحيط بعائلة زوجي.. لغزا ربما يرتبط بهذه اللوحة.. هل الفتاة الموجودة في اللوحة هي ذاتها التي ظهرت لي؟!.. لا أعلم.. لكني أميل إلى هذا الاعتقاد!!.

شكرت قريبتي كثيرا.. ثم نقدت العاملين بقشيشا محترما وطلبت منهما أن يلفا اللوحة بأوراق الصحف مرة أخرى ومن ثم أخذها إلى سيارة النقل.. لأتجه إلى السائق وأمنحه أجره أيضا.. قبل أن أطلب منه إعادة اللوحة إلى البيت.. حيث سيكون الخدم باستقباله لأخذها ووضعها في مكانها.. أما أنا.. فقد ركبت سيارتي وعشرات الأسئلة والشكوك تحوم حول رأسي.. أستعيد كل ما يتعلق بزوجي وما عرفته عنه خلال فترة زواجنا القصيرة.. وأتذكر أمورا بديهية كثيرة لم أنتبه لها مع الأسف سوى الآن بعد هذا الاكتشاف الغريب.

فـ(مساعد) شاب هادىء رصين لن يترك مكانه في مقهى مزدحم.. كي يسير أمام الناس ليتوسل إلى فتاة أن تأخذ رقم هاتفه كما فعل في لقائنا الأول!!.. هذه التصرفات تنافي شخصيته.. ولا يمكن أن تخرج من شخص مثله بعد أن عرفت طبيعته خلال فترة زواجنا.. ثم ماذا عن لطفه الزائد والمبالغ به؟!.. إنه كالملاك حين يتعامل معي.. لكنه يتحول إلى إنسان آخر أحيانا حين أسمعه يتحدث إلى موظفيه عبر الهاتف ويحاسبهم على أخطائهم.. يبدو أنني لن أعرف الإجابة على تساؤلاتي هذه سوى من خلال مواجهته!!!.

الغريب أنني وجدت نفسي -لا شعوريا- أقود سيارتي متجهة إلى بيت زوجي رغم كل مخاوفي ودون أن أفهم أنا نفسي السبب.. لأجد سيارة النقل وقد وصلت للتو أيضا.. حيث تعاونت 3 خادمات لحمل اللوحة وإعادتها إلى مكانها.. أما أنا.. فركنت سيارتي ودخلت مباشرة متجاهلة الجميع.. لماذا لا أشعر الآن بالخوف؟!.. وكأن الحاجز النفسي الكبير سقط فجأة.. حتى أنني أقدمت على تصرف غريب للغاية حين قررت المبيت هناك ليلتها.. وكأنني أريد أن أتأكد من نقطة معينة سأذكرها لاحقا.

أذهب إلى غرفة النوم لأستبدل ثيابي.. ثم أجلس أمام شاشة التلفاز أشاهد مسلسلا عربيا بشرود.. أمسك هاتفي وأتصل بزوجي.. فيرحب بي بحرارة ويسألني إن كنت على ما يرام.. أجيبه أنني بخير وقد عدت إلى عش الزوجية لأواجه مخاوفي بدلا من الهرب منها.. أسمعه يضحك بحماس وهو يثني على شجاعتي ويخبرني أنني سأكون بخير.. وأن تلك الأوهام ستزول عاجلا أم آجلا.. لا أظن أنها أوهام يا زوجي العزيز.. هناك أمر تخفيه عني.. لكني سأنتظر عموما إلى حين عودتك.. هذا ما قلته لنفسي!!.

لا أنكر أن بعض المخاوف راحت تنتابني بين الحين والآخر.. وتجعلني ألتفت تارة.. وأرهف السمع بحذر تارة أخرى.. أخشى أن يظهر لي شيء خارج عن المألوف كما حدث في الأيام السابقة.. لكن لا.. الأمور تسير على ما يرام.. لم أعد أسمع صوت البكاء والنحيب.. ولم أعد أرى أي شيء غير عادي.. هل كان شبح تلك الفتاة يحاول إيصال رسالة ما.. وقد تركني في حالي بعد أن وجدني أسعى لفهم ما يدور حولي؟!.. كلام قد يبدو مضحكا للبعض لكني لا أراه كذلك أبدا بعد كل ما رأيت وسمعت.. ذهني يغرق بتلك الأفكار وقد شعرت أن كل الرجال تقريبا متشابهين.. وكأنهم علب كوكاكولا مرصوصة على الرف.. فجميعهم من النوع الذي يذهلك في البداية.. ثم تندم طوال حياتك أنك عرفته!!.. ويبدو أنه كلما زاد تعلقك بالآخر.. زادت خيبة الأمل.. لماذا هذا الكلام؟!.. لأن هناك شعورا ينتابني أن حياتي الزوجية في أيامها الأخيرة.

أيام قليلة قضيتها في بيت الزوجية حاولت فيها باستماتة مقاومة مخاوفي.. حيث نجحت في ذلك إلى حد كبير -وبصورة فاجأتني شخصيا- خاصة وأن الأمور سارت على ما يرام.. إذ لم أرَ أو أسمع خلالها ما يريب.. قبل أن يعود زوجي من السفر

أخيرا في تلك الليلة.. ليجدني بانتظاره في غرفة النوم.. فابتسم واقترب ليحتضنني.. لكني ظللت جالسة على الفراش ورددت التحية بشيء من البرود.. ليسألني بحنان بدا لي مستفزا:

- هل أنت على ما يرام يا حبيبتي؟!.

أنا أكره تلك الطريقة التربوية في التعامل معي.. وكأنني طفلة.. فقلت متحدية:

- لا داع لارتداء الأقنعة الزائفة بعد اليوم.. أمور كثيرة انكشفت أثناء سفرك.. أريدك أن تخبرني صراحة.. لماذا تزوجتني؟!.

بهت لسؤالي للحظة.. ثم رد بدهشة:

- لأنني أحببتك.. وهل يحتاج هذا إلى سؤال؟!.. ما الذي دهاك يا حبيبتي؟!.

قلت بعصبية وقد قررت كشف كل الأوراق:

- لقد فكرت كثيرا بلقائنا الأول في ذلك المقهى.. فالطريقة التي قابلتني فيها تثير الشكوك.. إنها تنافي شخصيتك الرصينة الهادئة.. شاب يحمل طباعك لن يترك مكانه

ليجلس أمام فتاة ويتوسل إليها أن تأخذ رقم هاتفه.. نعم.. الآن بعد مرور شهور على زواجنا وبعد معرفتي بشخصيتك جيدا.. أستطيع أن أقول أنك دبرت لقائي بك بطريقة أو بأخرى!!.

رد مصدوما:

- ما الذي تقولينه يا حبيبتي؟!.. أنا لم أدبر أي شيء.. كل ما بالأمر أنني أعجبت بجمالك وقتها.. ثم أحببتك بعد ذلك.. ما المشكلة؟!.

لم أكترث لكلامه.. بل أكملت لألقي آخر أوراقي وأهمها:

- لقد كشفت أمر اللوحة الموجودة في غرفة المعيشة.. أعرف أنك -أو أحد أفراد عائلتك- قمتم بجلب رسام ليطمس رسم لامرأة كانت تقف بجانب جدك في اللوحة.. ويرسم عليها ذلك البيت القديم الذي لا يوجد له أي معنى.. لا أعرف إن كانت هي نفس المرأة التي رأيتها وسمعت صوتها.. لكن الأمر يثير الشكوك والتساؤلات كثيرا.. أريدك أن تخبرني بالحقيقة.

كنت أنتظر منه أن يضحك ويخبرني أن خيالي واسع بالفعل..

لكني فوجئت به وقد تخاذل فجأة.. حتى بدا ضعيفا هشا بطريقة لم أره عليها منذ لقائنا الأول!!!.. إذ سكت فترة من الزمن وقد بدا وكأنه طفل كشفت والدته أمره بعد أن ارتكب خطأ ما.. ثم.. رفع رأسه وعلامات الأسف واضحة على ملامحه.. ليقول بحزن:

- سأخبرك بكل شيء يا حبيبتي.. وستصدقينني!!.

قلت بذهول ممزوج بالغضب:

- وما الذي يجعلك تظن أنني سأصدقك بعد أن كذبت علي وأخفيت الحقيقة عني؟!.

رد بحسرة:

- لأنك ستكرهين كلامي!!!.. حبيبتي.. الفتاة التي رأيتِها في اللوحة.. جدتك!!.

قلت بعصبية:

- ما هذا الهراء؟!.. لقد جعلتني في بادئ الأمر أشك بقواي العقلية.. والآن تحاول أن تخلق كذبة جديدة؟!.. أخبرني بالحقيقة فحسب.

أكمل بحزن:

- أنت تريدين الحقيقة.. أليس كذلك؟!.. دعيني أخبرك بها ولك حرية التصديق من عدمه بعد ذلك.. كما قلت لكِ.. هذه المرأة جدتك بالفعل.. لقد كانت -رحمها الله- تعمل خادمة عند جدي في أربعينيات القرن الماضي.

قلت بذهول:

- ما هذا الهراء؟!.. جدتي كانت تعمل خادمة عندكم؟؟!.

أومأ برأسه إيجابا وهو يكمل:

- لا تنسي أننا نتحدث عن فترة ما قبل النفط.. عمل المواطنة كخادمة في ذلك الوقت لم يكن بالأمر الغريب.. خاصة وأن جدي كان ثريا ومن أهم تجار البلد.. لقد كانت جدتك تأتي يوميا إلى بيتنا برفقة والدتك التي كانت طفلة رضيعة آنذاك.. حيث تقضي عندنا ساعات طويلة تقوم خلالها بكل أعمال الطبخ والتنظيف و.. رعاية طفلتها أيضا.. إذ لم يكن لها أي معيل أو سند بعد أن توفي جدك في واحدة من رحلات الغوص.

اتسعت عيناي على آخرهما وأنا أردد:

- يا إلهي.. لم تخبرني أمي بذلك أبدا!!.

رد بألم:

- لأنها لا تعرف الحقيقة.

سألته باستغراب:

- حسنا.. لا أفهم أين المشكلة بالضبط!!.

أردف قائلا:

- لقد وقع جدي في حب الخادمة (جدتك) بعد شهور من عملها في بيته.. و.. تزوجها فجأة دون أي مقدمات.. ليأخذها معه إلى أعلى درجات السلم الاجتماعي رغم أنف الجميع.. بمن فيهم زوجته الأولى (جدتي)!!!.. فقد كان قوي الشخصية.. شديد الاعتداد بنفسه كما هو واضح في اللوحة.. فلم يكن أحد يجرؤ أبدا على انتقاده أو مناقشته.. إلا أن القدر لم يمهله كثيرا.. إذ توفي جدي بعدها بسنتين فقط بسبب إصابته بأزمة قلبية.. لتبدأ مشاكل الميراث.. فقد كان أشقاؤه يرغبون بالتخلص

من جدتك بأي وسيلة كي لا تحصل على أي نصيب من الإرث.. وقد شعرت المسكينة بدورها أن الأمور ستسوء كثيرا بعد أن فقدت زوجها.. الشخص الوحيد الذي يحميها في هذا العالم.. وربما سيصل الأمر إلى قتلها!!.. فحاولت الاحتماء بمعارفها.. أو حتى جيرانها.. إلا أن الجميع رفضوا استضافتها خوفا من سطوة عائلتي ونفوذها آنذاك.. لتلجأ في النهاية إلى رجل صالح وزوجته.. وتتوسل إليهما أن يقوما بالاهتمام بطفلتها على الأقل ويظهراها أمام الناس على أنها ابنتهما.. خاصة وأن الحياة في تلك الفترة كانت بسيطة للغاية تخلو من البطاقات الشخصية والإثباتات الرسمية كما تعلمين.. وإلصاق أي طفل بأي عائلة لم يكن بالأمر العسير!!.. فوافق الرجل وزوجته.. وتركا جدتك وحيدة تواجه مصيرها.

سكت قليلا ليلتقط أنفاسه أمام عينيّ المغرورقتين بالدموع.. ثم أكمل بأسى:

- لم يهتم أفراد عائلتي بأمر الطفلة.. فالمشكلة كانت تكمن في جدتك فقط كونها أحد الورثة الشرعيين وقد

تطالب بحقها في أي وقت كما ظنوا.. لذا.. قرروا التخلص منها.. فقاموا بحبسها في البيت فترة طويلة مع تجويعها حتى الموت.. ليتم بعدها الكذب على السلطات والادعاء أنها أصيبت (بحمى التيفوئيد).. فأعراض هذا المرض شبيهة بأعراض من يموت جوعا*.. كما ادّعوا أنها تركت طفلتها عند أقارب لها في دولة خليجية في بدايات إصابتها بالمرض.. على اعتبار أن الزمن سيكون كفيلا بدفن تلك القصة في غياهب النسيان.. وأن الطفلة ستحتاج سنوات طويلة كي تكبر وتطالب بحق والدتها.. هذا إذا عرفت أصلا بتلك التفاصيل.. وقد مرت الكذبة على الجميع ببساطة شديدة.. لضعف أدوات البحث والتحري عند رجال الشرطة آنذاك.. ولعدم وجود أحد من عائلة جدتك كي يطالب بنصيبها من الورث.. فالكل كان منشغلا بتوفير لقمة عيشه في تلك الأيام القاسية.. ولم يكن أحد على استعداد للدخول في صراع غير متكافئ

* حمى التيفوئيد (Typhoid Fever) مرض معدٍ ينتج عن أكل أو شرب المواد الملوثة ببكتيريا (السلمونيلا) (Salmonella).. علما بأن (حمى التيفوئيد) تعتبر من أقدم أنواع الحمى في تاريخ البشرية.. إذ أصيب بها الإنسان القديم منذ حوالي 200 ألف عام.. ومن أشهر أعراضها القيء المستمر وفقدان الشهيه والإسهال المتواصل مع الخمول العام.. إلى أن يفقد المريض في النهاية الكثير من وزنه.. وتلازم تلك الأعراض عادة آلام مبرحة في المعدة.. مع بقع وردية تظهر على الصدر.

إطلاقا مع عائلتي للمطالبة بنصيب جدتك من الإرث.. إلى أن ماتت القصة تدريجيا ودفنها الزمن.. خاصة بعد أن حافظ ذلك الرجل وزوجته على سر الطفلة.. وقاما بإظهارها على أنها ابنتهما بالفعل.. حتى أنها ما تزال إلى يومنا هذا تحمل اسمهما في أوراقها الرسمية.

لم أتمكن من الرد.. بل ظللت أنظر إليه بذهول.. أحاول أن أقول شيئا.. لكن لساني انعقد تماما.. لتنحدر دمعة حزينة من عينيه وهو يومىء برأسه إيجابا ويكمل:

- هذه هي الحقيقة يا حبيبتي.. لقد عرفت بالأمر من والدي -رحمه الله- في أيامه الأخيرة.. إذ أخبرني بالقصة وهو يشعر بذنب عظيم كونه تستر على جريمة قتل بشعة كهذه طوال حياته.. بعد أن عاصر بعض أحداثها وهو في سن المراهقة.. وأوصاني قبل موته ببذل كل جهدي للعثور على الطفلة التي كبرت الآن بطبيعة الحال والاطمئنان على أحوالها.. مع تقديم أي مساعدة قد تحتاجها في حياتها.. لذا قررت تنفيذ وصية والدي كي يرتاح في قبره.. فبدأت رحلة بحث مرهقة حاولت فيها استغلال كل علاقات عائلتي الاجتماعية.. إلى أن عثرت

على عنوان والدتك.. وعلمت أنها ما تزال على قيد الحياة -أطال الله في عمرها- وتعيش حياة سعيدة مع أسرتها.. دون أن تتخيل للحظة أنها نُسبت في أوراقها الرسمية لأبوين آخرين غير أبويها الحقيقيين!!.

سألته بذهول:

- ولماذا أنت تحديدا؟!.. لماذا أخبرك والدك بهذه القصة وأوصاك -دون أشقائك- بتتبع أخبار أمي؟!.

قال بألم:

- لقد توفي والدي في إحدى مستشفيات (لندن).. حيث قضى هناك وقتا طويلا في العلاج.. وقد كنت أرافقه طوال فترة علاجه كوني الوحيد غير المتزوج من أشقائي آنذاك.. ويبدو أنه قرر إخباري بكل شيء حين شعر بدنو أجله.. على أمل أن يزيل هذا الذنب الذي يجثم على صدره كما كان يقول.. وقد طلب مني أيضا أن أعده بكتمان السر عن الجميع وأن أقوم بتنفيذ وصيته.

انحدرت الدموع من عيني وأنا أستمع إليه بحرقة.. قبل أن أقول بحنق:

- عائلتك اللعينة ارتكبت جريمتين بحق عائلتي.. لقد قتلوا جدتي أولا.. وعذبوها قبل قتلها بتجويعها حتى الموت ثانيا.. فهذه جريمة أخرى قد تكون أكثر بشاعة من الأولى.. وهم يتحملون أيضا مسؤولية تسجيل أمي باسم أبوين آخرين.. أي حقارة هذه؟!.. ثم هل تعرف معنى كلامك؟!.. أنت تقول أن أمي الآن في الواقع تحمل اسم رجل آخر غير والدها الحقيقي.. إنها جريمة ثالثة ارتكبتها عائلتك!!.

عض على شفتيه ألما دون أن يرد.. ثم ساد الصمت بعض الوقت سوى من صوت بكائي.. ليستطرد بألم:

- لقد حاولت أن أكمل تنفيذ وصية والدي.. فتوجهت إلى بيتكم ذات يوم دون أن أعرف ما الذي سيتوجب علي فعله بعد ذلك.. وبأي حجة سأتحدث إلى والدتك كي أطمئن على أحوالها وأقدم لها المساعدة لو كانت بحاجة إليها.. وعند وصولي.. أوقفت سيارتي في الخارج.. وظللت للحظات أفكر وأحاول أن أرسم في ذهني كذبة مقنعة.. فصادفتك وأنت تخرجين متجهة لمكان ما.. وانبهرت بجمالك وأناقتك!!.. ووجدت نفسي

-لا شعوريا- أتبعك.. لم تكن هذه المرة الوحيدة.. إذ أصبحت مفتونا بك.. حتى أنني أوصيت شخصا ممن أثق بهم من العاملين لدي أن يتتبعك باستمرار لمعرفة الأماكن التي ترددين عليها.. فأخبرني مع مرور الوقت أنك معتادة على الذهاب إلى ذلك المقهى.. وهكذا تم لقائي بك يا حبيبتي!!!.. نعم.. لقد أحببتك قبل أن أتحدث إليك في ذلك اليوم.. ولم أعرف معنى عبارة ((الحب من أول نظرة)) إلا حين عرفتك.. إنني أهيم بك عشقا.. لهذا تزوجتك رغم أنف الجميع.. وستتربعين على عرش قلبي إلى الأبد.

يا إلهي.. الأمر يتجاوز الصدمة بكثير.. كل هذا كان يدور حولي دون أن أدري؟!.. أتساءل كم منا يعيش حياته بصورة طبيعية للغاية دون أن يعلم ما يحاك حوله من مصائب ومؤامرات وأقاويل!!.. وأمام نظراتي المبعثرة.. أكمل وهو يزفر مفرغا كل انفعالاته:

- لا أنكر أنني شعرت باستغراب شديد حين أخبرتني بماهية الشبح الذي ظهر لك.. لقد أخافني كلامك كثيرا.. إلا أنني لم أظهر لك ذلك.. وظللت أحاول إقناع نفسي

أنك واهمة.. وأن الأمر لا يمكن أن يرتبط بهذه القصة التي حدثت في زمن قديم وبيت قديم لا علاقة له ببيتنا هذا.. لكني شعرت بعد إصرارك أن هناك قوى ما تحاول أن تكشف لك الحقيقة بالفعل!!.

أنهى كلامه واقترب مني ليحتضنني والدموع تملأ عينيه.. فاستسلمت له بمشاعر متضاربة وهو يهمس في أذني.. ويخبرني بحبه لي وأن لا ذنب له بما حدث.. لكنه يطلب أن أسامحه رغم ذلك.. ولو سامحته فسيجعلني أسعد إنسانة في العالم.. لم أرد على كلامه.. بل تذكرت بالمقابل تلك الفتاة التي ظهرت لي وسمعت بكاءها.. لقد كانت جدتي في شبابها إذا!!.. يبدو أن الأشباح التي تظهر لنا تجسد اللحظات الأخيرة من حياة أصحابها.. لهذا ظهرت جدتي في أبشع صورها.. بالطبع.. تجويع لأسابيع طويلة حتى الموت.. فكيف ستبدو بعد كل هذا؟!.. إنني أجد نفسي الآن مضطرة لتصديق عالم الماورائيات الغامض.. ويبدو أن الأشباح لا تتحدث إلا لأصحاب الشأن.. ربما لهذا تظل بعض البيوت مسكونة إلى الأبد.. لأن أصحاب الشأن لم يلتقوا بالأشباح التي تقطنها كي توصل لهم رسالتها!!.. ولو لم ألتقِ بزوجي وأعيش معه في بيت عائلته.. لما علمت

بأمر تلك القصة أصلا.. إنني حفيدة الضحية.. وهو حفيد الجلادين الذين ارتكبوا جريمتهم بدم بارد!!.

لماذا حاولت جدتي إيصال تلك الرسالة لي؟!.. عما كانت تريد أن تحذرني؟!.. لا أعرف.. هذا سؤال لن أكشف إجابته أبدا.. ربما ترغب بعض الأشباح بالفضفضة أيضا.. وربما ساء روح جدتي أن أرتبط بشاب قام أجداده بتعذيبها حتى الموت.. فأرادت أن توصل لي الحقيقة كاملة.

إنني أستذكر أيضا جدتي المزيفة التي توفيت وأنا طفلة في السابعة ربما.. لقد بكيت كثيرا على رحيلها آنذاك دون أن أدرك للحظة أنها في الواقع ليست جدتي.. بل السيدة التي سُجلت والدتي باسمها واسم زوجها.. أما جدتي الحقيقية فقد عرفنا قصتها للتو.. عاشت المسكينة وماتت في الظل.. ولا يعرف أحد عنها أي شيء.. يا إلهي.. أشعر أننا لو بحثنا في أنساب الناس فسنجد العجب!!!.. لحسن الحظ أن أمي تعيش الآن بسلام مع أبي ولا تعرف أي معاناة عاشتها والدتها الحقيقية.. الأفضل ألا تعرف تلك القصة أبدا.. خاصة وأنها في سنواتها الأخيرة أطال الله في عمرها.

زوجي ما يزال يحتضنني.. فيقطع الصمت وهو يقول:

- أعلم أن الحقيقة مؤلمة للغاية يا حبيبتي.. لكن القصة حدثت في أزمان قديمة لم يكن لأي منا دور فيها.. نحن أبناء هذا الزمن.. فلنعشه كما يجب.. إنني أحبك يا حبيبتي.. أحبك كثيرا.. صدقيني.. إنني أحتقر عائلتي رغم ثرائها ونفوذها.. أحتقر برودهم وتعاليهم على الجميع.. ولو كان الأمر بيدي لأخبرتهم بالقصة كاملة ولأجبرتهم على تقبيل قدميك والاعتذار لك.. لكنهم لا يعرفون الحقيقة.. وأنا لن أخبرهم بشيء بعد أن وعدت والدي -رحمه الله- بدفن هذا التاريخ الأسود.. أريد أن أنساه وأبني حاضرا جديدا معك.. فأنتِ لي.. وأنا لك.. إلى الأبد!!.

أقول له بحزن وأنا أبتعد عنه لأمسح دموعي:

- لماذا لم تتخلصوا من اللوحة بدلا من استقدام رسام ليقوم بتزييفها؟!.

فيرد بعد تنهيدة حارة:

- لم يكن أبي ليقبل بذلك إطلاقا.. كونها الذكرى الوحيدة التي تحمل ملامح والده في زمن لم تنتشر فيه الصور الفوتوغرافية.. وحين توفي أبي منذ سنوات قليلة.. كنا قد اعتدنا وجود اللوحة معلقة على الجدار ولم نفكر بالتخلص منها.

أنظر إليه بحنان وقد شعرت أن زوجي عملة نادرة بالفعل.. إنه يحمل أخلاق الفرسان.. وقلب العشّاق.. وشجاعة الأبطال.. خاصة حين أستذكر تفاصيل حياتنا الزوجية القصيرة.. ولا أجد إلا اهتمامه وحبه.. فأحتضنه بالمقابل وهو يردد كلمات الحب على مسامعي مرة أخرى وأخرى.. عالمة أن قصتي انتهت عند هذا الحد.. وقد تأكدت من ذلك مع مرور الأيام.. بعد أن اختفت الأصوات تماما من البيت ولم أعد أرى تلك الفتاة (جدتي) بعد أن وصلتني رسالتها!!.

لهذا السبب تحديدا عدت إلى بيت زوجي في تلك الليلة بعد أن قمت بفحص اللوحة في المستشفى.. كنت أريد التأكد -رغم خوفي الشديد- إن كانت الفتاة التي ظهرت لي وأسمعتني بكاءها.. هي نفسها الموجودة في اللوحة.. وإن كانت ستظهر لي ثانية بعد أن وصلتني رسالتها.. لكني كنت محقة.. فقد

اختفت بعد أن رأتني أتتبع تاريخ القصة بكل جدية.. يبدو أن الأموات يقودون حياتنا كثيرا دون أن ندرك.. ويبدو أنهم يعيشون في عالم يخضع لقيود صارمة.. لهذا تكون رسائلهم مبهمة وغير واضحة.

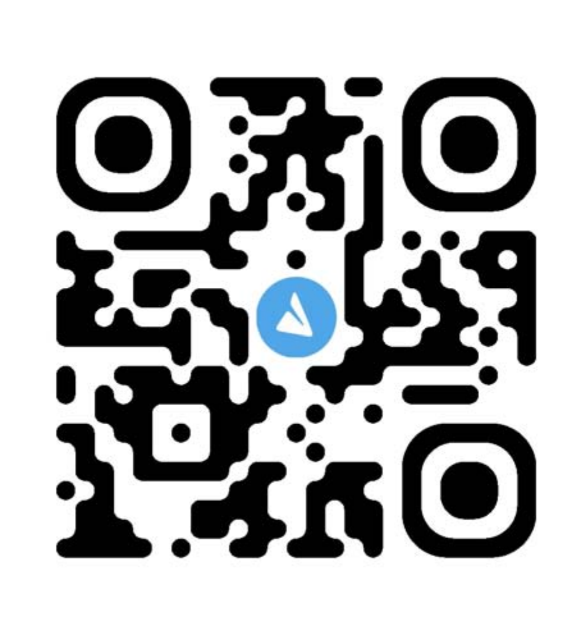
كم أشعر بالحزن لجدتي الحقيقية.. مؤلم حجم المصيبة التي عاشتها والطريقة البشعة التي قُتلت بواسطتها.. أتخيل لحظات الرعب وهي تبحث عن مكان تأوي فيه ابنتها.. أتخيل قلقها عليها وعلى مستقبلها قبل أن تتعرض هي نفسها للتعذيب جوعا حتى الموت.. لكني أحاول نسيان كل هذا.. فالزمن يخفف الآلام ويجعل المصائب تهون.. إنني أبكي من أجل حادثة مات جميع أطرافها منذ سنوات طويلة.. يجب أن أنسى كل هذا وأنظر إلى المستقبل.. وإلى هذا الزوج الحنون المحب.. فأمسح دموعه بيدي.. لأقول مبتسمة رغم أن الدموع ما تزال تنهمر من عيني:

- لا أريد تلك اللوحة في حياتنا.. لا أريد أن أراها أبدا.

فيبتسم بالمقابل وهو يهز رأسه إيجابا ويعدني أنه سيتخلص منها إلى الأبد.. أو ربما يرسلها إلى أحد أشقائه كي تغيب تماما

عن أنظارنا وعن حياتنا كلها.. لتزداد ابتسامتي اتساعا وأنتبه إلى حقيقة مهمة.. وهي أن السعادة شعور نعم.. لكنها أحيانا أشخاص في حياتنا أيضا!!.. فزوجي هو الذي سيكون سر سعادتي في هذه الحياة.. حتى أصبحت على يقين أن الحل الوحيد لكل مشاكل العالم هو الحب.. على أمل أن ننظر معا إلى المستقبل.. وننسى ذلك التاريخ الأسود.. والإرث الذي تحمله عائلة زوجي.. الإرث.. الثقيل!!.





نهاية اليوم

4 ساعات تقريبا.. لكنها انقضت بسرعة غريبة.. ودون أن يتفوه أي منا بكلمة!!.. تماما كما هو مفترض.. لقد شعرت خلالها وكأننا في العصور الوسطى حين يجتمع أهالي القرية حول النار الدافئة.. ليستمعوا إلى من هو أكثرهم حكمة وثقافة ليروي لهم قصة ما.. فيشعرون بالدفء والرعب والغموض اللذيذ بمزيج غريب لا يمكن أن يجتمع إلا في أمسيات كهذه!!.

وبالطبع تخلل تلك الساعات شهقات كثيرة ودموع ونظرات التعاطف.. بل والحقد أحيانا على بعض الشخصيات السيئة في القصص!!.. ولن أخجل من ذكر أن دموعي انحدرت أيضا تأثرا ببعض الأحداث.. حتى بتنا في النهاية صامتين وكل منا ينظر في مكان ما وهو غارق تماما في عالمه الخاص.. إلى أن شعرت أن الفتيات ينظرن إلي برجاء كي أكسر هذا الصمت وأتحدث.. فأنظر بدوري إلى إحدى الشموع القليلة التي تشتعل بهدوء.. وأقول بخفوت شديد احتراما لرهبة القصص:

- هناك لحظات من حياة المرء يتمنى لو أن الزمن توقف عندها!!.. هذا ما أستطيع قوله عن الساعات الماضية..

كم تمنيت ألا تنتهي.. كم تمنيت أن نستمر إلى الأبد!!.

سألتني (بشاير) بخفوت:

- ما رأيك بالقصص؟!.

قلت بحزم وأنا أنظر إليها:

- أصدق كل حرف منها دون تردد.. فلن تأتي فتاة إلى مكان لا تعرفه.. وتجتمع بأغراب لا تعرفهم.. فقط لتروي لهم قصة من وحي خيالها.. دعك من أن القصص محبكة ويصعب أن يقوم أحدهم بتأليفها.. وإلا لكانت هناك ثغرات كثيرة سيسهل علينا كشفها.. أو هذا ما أظنه على الأقل.

تنحنحت (مُهرة) لتسألني:

- بعيدا عن مصداقية القصص.. ما هو انطباعك العام عنها؟!.

نظرت إليها للحظة وأنا أحسد زوجها على هذا الجمال.. يستحيل أن تتواجد فتاة كهذه في مكان إلا وتكون نجمته الأولى.. المهم أنني قلت وأنا أحك ذقني مفكرا:

- قصة (بشاير) هي الأكثر سوداوية بالطبع.. فقد عانت كثيرا في حياتها.. مشكلة الغدر أنه يأتي دوما من أقرب الناس.. لهذا يكون مؤلما جدا.. لكن يسعدني أنها تجاوزت تلك الأيام السوداء وتعايشت مع مشكلة العقم.. وعلى كل حال.. أشعر أن الإنجاب في هذا الزمن جريمة!!.

قالت (بشاير) بابتسامة حزينة:

- لم يكن الأمر سهلا.. فعندما تصل لمرحلة أن المهدئات لا تجدي مع الاكتئاب.. سيكون الحل الوحيد حينها أن تحدث ثورة في حياتك.. الناس من حولك.. عاداتك الغذائية.. صداقاتك.. ممارستك للرياضة.. السفر.. إلخ.. وربما لهذا أيضا طلبت منك تأسيس هذا النادي.. إنه من ضمن ثورة التغيير التي أحدثتها في حياتي.. عموما.. تستطيع الاطمئنان علي.. إنني بألف خير.. رغم أنني عشت تحديات صعبة للغاية.. لكني دوما أقول أن الإنسان الذي يعيش حياة سهلة دون تحديات.. يصبح غبيا مع مرور الأيام!!.

ابتسمت متعاطفا.. ثم سألتها:

- هل هناك أي أمل في الزواج مستقبلا؟!.

ردت بحزم:

- مستحيل.. لن أصدق أي رجل.. إنهم يبيعون الأحلام والوعود فحسب.. ولا يمكنهم بيع الأحلام لفتاة مثلي سارت وحيدة في الكوابيس.. إنني قوية جدا.. أقوى من (دب الماء) نفسه.. أنت تعرف هذا الكائن الدقيق الذي لا يرى بالعين المجردة.. لكنه مصنف رغم ذلك على أنه أقوى كائن حي على وجه الأرض*.

---

* دب الماء (Tardigrade) هو بالفعل أغرب وأقوى كائن حي على كوكب الأرض دون منازع.. إنه كائن مجهري دقيق جدا يتغذى على النباتات والبكتيريا.. ويتراوح طوله بين 0.5-1.5 مم.. ويتميز بشكل برميلي مع أربعة أزواج من الأرجل القصيرة.. ومن هنا تم تشبيهه بالدب.. وقد تم اكتشافه عام 1773 ميلادية على يد العالم (يوهان جوزيه) (Johan Goeze).. ويعيش هذا الكائن في كل مكان في العالم.. إذ عثر عليه في القطب الشمالي والجنوبي.. وفي أعالي الجبال والصحاري والبحيرات.. وحتى في الطين البركاني والغابات الاستوائية.. بل ونجده في الجدران والسقوف المنزلية.. وفي أعماق البحار التي تعتبر موطنه الأصلي.. إذ يتواجد فيها بكميات هائلة تصل إلى 25 ألف لكل لتر من الماء!!.. ويستطيع (دب الماء) البقاء على قيد الحياة دون ماء أو هواء لمدة 10 سنوات!!.. بل ويستطيع البقاء على قيد الحياة في الفضاء الخارجي أيضا!!!.. فقد تم إرساله على متن مركبة فضاء روسية عام 2007.. وبقي هناك على قيد الحياة 12 يوما.. على الرغم من الحرمان من الأكسجين والضغط المنخفض والإشعاع الشديد.. ودرجات الحرارة المنخفضة.. علما أن هذا الكائن يستطيع تحمل درجة حرارة تصل إلى 180 درجة سيليزية.. أو برودة تصل إلى -130 درجة سيليزية.. ويعتبر (دب الماء) من الكائنات المعمرة.. إذ يعيش حوالي 200 عام.

ضحكت لهذا التشبيه الجميل.. فأنا أعرف هذا الكائن.. لكن لا أعرف إن كانت (مُهرة) أو (ملاك) قرأتا عنه.. المهم أنني قلت باحترام شديد:

- تسعدني قوتك.. إنك أفضل حالا بكثير مما كنت عليه في المستشفى.. وأرجوك تذكري دوما.. من العسير أن يكون الماضي والحاضر مشرقين.. أحدهما يجب أن يكون معتما.

سكتن جميعهن موافقات على كلامي.. لأكمل:

- أما قصة (ملاك) فهي الأغرب ربما.. ولا أبالغ لو قلت أنني ظللت طوال أحداثها أحاول تخمين ما سيحدث.. ورغم ذلك فشلت.. فالنهاية كانت مغايرة لكل توقعاتي.. وبخصوص قصة (مُهرة).. فهي الأكثر رعبا.. كوننا نتحدث عن عالم ما وراء الطبيعة هنا.. وأنا أصدق قصتها لأن لي تجارب في هذا العالم الغامض.. وسردت بعضها في سلسلة (حالات نادرة) بأجزائها الأربعة.

تقول (ملاك) مصححة:

أتفق معك أن قصتي قد تكون الأغرب.. لكني أختلف معك بالنسبة للرعب.. فهو لا يتعلق بالضرورة بقصص الجن والأشباح.. إن منظر زوجي وهو يحترق أمامي ما زال يثري كوابيسي.. رغم أننا نشاهد تلك المناظر باستمرار في السينما.. وأحيانا في نشرات الأخبار.. لكن أن يحدث هذا أمامك ولأقرب الناس إليك؟!!.. إنني مليئة بالجروح النفسية بعد تلك الليلة السوداء.. إلا أنني ما زلت أقف على قدمي رغم كل ما حدث.. لذا فأنا ألتهب فخرا بنفسي.

ابتسمت متعاطفا.. ثم قلت محاولا تغيير دفة الحديث:

- صدفة غريبة أن تشهد الأمسية فتاة مطلقة.. وأخرى أرملة.. و.. متزوجة.. لكني سعيد عموما أن كل منكن تجاوزت محنتها.. وإن كانت قصة (مُهرة) هي الأسعد في نهايتها على الأقل.. آمل أن يستمر زوجها في حبه وعطائه.. فزوج كهذا عملة نادرة بحق.

ابتسمت وهي تقول:

- إنه عملة نادرة بالفعل.. وما زالت معاملته لي كما هي لم تتغير رغم مرور قرابة السنتين على زواجنا.. حيث انتقلنا

خلالها إلى فيلا (البدع) بصورة مؤقتة كي أنسى الأيام العصيبة التي عشتها في بيت عائلته.. وحياتنا مستقرة فيها إلى درجة كبيرة.. علما بأن الفيلا الجديدة قيد الإنشاء وستكون جاهزة خلال شهرين على الأكثر.. وستصبح بيت الزوجية الدائم.. كما أنني مديرة الآن في إحدى إدارات شركة زوجي.. وأعمل بجد كي لا أكون مجرد عبء عليه.. أريد أن أثبت له دوما أنني أستحق هذا المنصب.. فأنا أعشق التحدي ولا أخشاه أبدا.. وهو أمر قد يبدو غريبا لفتاة عاشت طوال حياتها مدللة.

جميل أن تنظر إليها (ملاك) و(بشاير) بفرح دون حسد كما يحدث دوما بين الفتيات.. هذا يسعدني كثيرا.. فقلت بحماس:

- هناك أوقات كثيرة نظن فيها أن كل شيء في حياتنا توقف.. وإننا متجهون إلى طريق مسدود.. ثم تحدث المعجزة.. لا أعرف إن كنتم قرأتم عن (فيسنا فولفيتش) (Vesna Vulovic).. مضيفة الطيران التي سقطت بها الطائرة عام 1972 من على ارتفاع 33 ألف قدم.. لقد توفي كل من كان على متن الطائرة سواها.. إنها تحمل الرقم القياسي للسقوط من هذا العلو مع بقائها على

قيد الحياة*.. ورغم كل الإصابات الجسدية والنفسية التي ألمت بها.. إلا أنها تجاوزتها وعاشت حياتها طبيعية بعد ذلك.. هذا مجرد مثال من أمثلة كثيرة لأناس واجهوا الموت لكنهم تجاوزوه.

نظرن إلي باستغراب كون إحداهن لم تكن على علم بالقصة.. ثم قالت (ملاك):

- أشعر أننا نختلف عن المجتمع بأسره.. وهذا لا يحزنني.. فنحن من صنعنا هذا الاختلاف كوننا خرجنا من دوامة التشابه والتكرار.. بينما المتشابهون ما يزالون في تلك الدوامة.. كم أشفق عليهم!!.

استحسنا جميعا كلامها.. ثم.. قلت وأنا أنهض بصعوبة بعد أن تيبس جسدي بأكمله جراء الجلوس ساعات طويلة:

- المعذرة.. لم أشعر بتعب الجلوس الطويل سوى الآن.. لقد تنملت ساقي اليمنى تماما.. لكني استمتعت بالفعل بهذه الأمسية الرائعة.. ويؤسفني أن تنتهي الآن.. فالساعة تجاوزت منتصف الليل.

---

* حادثة حقيقية.

ابتسمن جميعا.. ثم قالت (مُهرة):

- لا مشكلة بالنسبة لي.. إن زوجي مسافر الآن كعادته.. ولا يعلم بأمر سهرتي هذه أصلا.. ولا أدري إن كان سيمانع لو علم بوجودك معنا يا دكتور.. لذا أفضل إبقاء الأمر سرا طالما لا أرى أنني ارتكبت أي خطأ.

أومأنا برؤوسنا متفهمين.. ثم.. حانت لحظة الوداع.. فصافحتهن جميعا وأنا أطلب منهن البقاء قويات لمواجهة العالم.. متمنيا أن تتاح لي الفرصة للقائهن لاحقا.. ربما في لقاء النادي الثاني.. حين نجلس نحن الأربعة لنستقبل عضوات جديدات.. لا أعلم كيف ستتم الأمور حينها!!.. لنترك هذا للمستقبل.

أرى كل فتاة تلتفت إلى الأخرى.. ثم.. تحتضن كل منهن الأخرى بحرارة.. ودموعهن تكاد تنهمر.. قبل أن تستعد (ملاك) و(مُهرة) للرحيل بدورهما.. أما أنا فابتسمت تأثرا.. واتجهت ناحية الباب بثبات وذلك الشعور الغريب بالاكتئاب يسيطر علي.. لكني لا أريد أن تتحسن حالتي النفسية رغم ذلك.. فالاكتئاب لذيذ أحيانا!!.. إنه يشعرني أنني إنسان مختلف عن الآخرين.. أعيش في عالمي الذاتي الثري الذي سرعان ما أشتاق إليه حين



أقضي بعض الوقت مع أشقائي أو والدتي.. فجميعهم ينظرون إلي بشفقة ويدعون لي بالهداية.. وكأنني ارتكبت جريمة كوني لم أتزوج وأعيش وحيدا.. بالطبع.. أخيفهم كثيرا لأنني مختلف.. ولست نسخة مكررة منهم!!!.. يبدو أنه من السهل احترام من يشبهنا.. ومن العسير أن نحترم من يختلف عنا!!.

خرجت إلى سيارتي.. لأقودها متجها إلى شقتي أخيرا وسط الشوارع الهادئة في مثل هذا الوقت.. عالما أنني قضيت أمسية رائعة آمل أن تتكرر.. بعد أن تركت كل فتاة قطعة من روحها في قلبي!!.. لكني سعيد أنهن وجدن من يشاركهن أحزانهن.. أما أنا.. فلا أجد حتى من يشاركني أفراحي!!.. ربما ستكون أمسيات كهذه ملجأ لي أيضا في كل مرة أجد نفسي ضائعا في زحمة الحياة.. لذا سأحرص على استمرار هذا النادي الجميل.. نادٍ العلاج النفسي الأول من نوعه في الخليج.. نادي لا يحتاج رسوما أو بطاقات عضوية.. ورأس ماله فقط قول الحقيقة الغريبة التي قد لا يصدقها المجتمع.. سأنتظر ورود المزيد من الرسائل عبر البريد الإلكتروني.. ربما تصلني رسائل من فتيات يستحقن أن يكونن معنا في أمسية كهذه.. سنكون لها حينها خير ملجأ للبوح ما بقلبها.. سنكون لها.. (مـــــلاذ)!!.

إصدارات المؤلف:

1) وراء الباب المغلق (2000)
2) خلف أسوار العلم (2002)
3) الأبعاد المجهولة (2004)
4) الأبعاد المجهولة 2 (2006)
5) في الجانب المظلم (2008)
6) حكايات من العالم الآخر (2008)
7) 17 (2008)
8) زيارات ليلية (2009)
9) رسائل الخوف (2010)
10) بعد منتصف الليل (2012)
11) منطقة الغموض (2012)
12) حالات نادرة (2012)
13) حالات نادرة 2 (2013)
14) حالات نادرة 3 (2014)
15) الأبعاد المجهولة 3 (2014)
16) متحف الأرواح (2015)
17) حالات نادرة 4 (2016)
18) قصص.. لا يسمحون لي بنشرها (2017)
19) مخطوطات مدفونة (2018)
20) ملاذ (2018)
21) المُعقَّد (2019)
22) حالات نادرة 5 (2020)
23) جرعة زائدة (2020)

للتواصل مع المؤلف

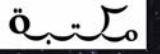
Email : **kuwaiti27@hotmail.com**

Twitter : **@Abdul_Alrifaee**

Instagram : **abdul_alrifaee**

Snapchat : **alrifaee**

Youtube : **www.youtube.com/aalsayed1973**





telegram @t_pdf

هناك صندوق أسود لكل إنسان.. يعيش معه.. ويموت معه!!.. لكن الأمر يختلف معنا في هذا التجمع الغريب الخاص بالفتيات.. إذ ستفتح خلاله كل فتاة الصندوق الأسود الخاص بها لتبوح بأخطر أسرارها.. وسنكون حريصين بدورنا على الاستماع إليها باهتمام كي نحمل عنها شيئا من همومها التي تثقل كاهلها.. كما سنكون حريصين أيضا على سرية شخصيتها.. لأننا ندرك جيدا أن الأنثى حين تبوح بأسرارها.. فإنها في واقع الأمر تشعل عود ثقاب.. إما أن ينير الظلام من حولها.. أو يشعل حياتها كلها!!.

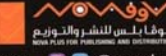
مهلا.. نكاد نسمعك وأنت تتساءل عن هويتنا.. فمن نحن بالضبط؟!.. ولماذا ستثق بنا أي فتاة أصلا كي تخبرنا بأسرارها؟!.. إنها تساؤلات مشروعة بالطبع.. وإجابتها تكمن في (مـلاذ).. أول نادٍ يختص بالعلاج النفسي الجماعي في منطقة الخليج.. حيث ستتواجد في لقائه الأول 3 فتيات.. مع طبيب نفسي متمرس سيستمع لهن بكل اهتمام.. كي تروي كل واحدة منهن قصتها بكامل تفاصيلها على سبيل الفضفضة.. والتي لها دور مهم للغاية في العلاج النفسي كما يؤكد خبراء علم النفس.. فحين يصر الإنسان على الاحتفاظ بأسراره السوداء لنفسه.. ستلتهمه من الداخل ببطء إلى أن تقضي عليه!!!.

لذا نحن نعدك عزيزي القارئ بساعات ممتعة لن تنساها أبدا.. لأنك ستقتحم عالما غريبا وغير مألوف.. فالفتيات اللاتي ستقرأ قصصهن لا يعشن في الظلام.. بل الظلام هو الذي يعيش بهن.. وأخيرا.. يجب التذكير أن هذا النادي أنشيء لكل فتاة تعيش في هذا العالم لكنها لا تنتمي إليه.. إذ سنكون لها خير أصدقاء.. وخير مستمعين.. سنكون لها.. (مـلاذ)!!.

@Abdul_Alrifaee

abdul_alrifaee
alrifaee


9 789996 696381



www.novapluskw.com

